مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيم

٨

أسباب النصر

في سورة الأنفال

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

أسباب النصر

في سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين أما بعد:

سجل تاريخ المسلمين في العصور المتأخرة هزائم كثيرة متتابعة في مختلف ميادين الحياة، وقد بثت الصحوة الإسلامية في كثير من المسلمين روحاً جديدة جعلتهم يتطلعون إلى إحياء مجد سلفهم الصالح ورفع الرايات من جديد وتحقيق الانتصارات.

ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا إذا أحسنوا العودة إلى كتاب ربهم وسنّة نبيهم عليه الصلاة والسلام.

ويتناول هذا الكتاب أسباب النصر من خلال سورة الأنفال التي أنزلها الله تعالى بمناسبة أول وأعظم نصر تحقق في تاريخ المسلمين في عهد رسول الله ﷺ، في غزوة بدر الكبرى التي مهدت لكل الانتصارات التي تحققت للأمة المسلمة بعد ذلك.

إنه يرسم طريق النصر للأجيال المسلمة التي تتطلع إلى النصر، ويبين نظرة الإسلام إلى الحرب والسلام من خلال المعاناة الصادقة الكريمة للنبي ﷺ وأصحابه البدريين، الذين قدر الله تعالى لهم بمشيئته وحكمته أن يكونوا رواد الجهاد في الإسلام.

كما أن هذا الكتاب أصدق سجل لأحداث غزوة بدر من خلال

أوثق المصادر التاريخية وأصدقها، آيات القرآن الكريم وسنّة النبي ﷺ.

وجاء الكتاب صورة صادقة للهدف الأساسي لهذه السلسلة القرآنية المباركة، وهو إظهار الاتساق والانسجام بين آيات السورة، مع تفسيرها تفسيراً علمياً عصرياً واضحاً من خلال الموضوع للسورة الكريمة.

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: لبيان الأسباب المباشرة للنصر من خلال عرض ما حدث قبل المعركة وفي أثنائها.

الفصل الثاني: لبيان الأسباب غير المباشرة للنصر، التي ينبغي للأمة أن تسعى دائماً لتحصيلها لتضمن الحياة الكريمة العزيزة لها.

الفصل الثالث: للتحذير من أسباب الهزيمة التي تنعكس آثارها السلبية على حياة الأمة في السلم والحرب، وإني لأسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب فاتحة خير ونصر للمسلمين، وأن يتقبله مني.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

عبدالحميد محمود طهماز

مكة المكرمة ٢٢/ ٥/ ١٤٠٩
١٩٨٨/١٢/٣١

الفصل الأول

الأسباب المباشرة للنصر

البداية من النهاية

نزلت سورة الأنفال، كما روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنه، بسبب غزوة بدر، وبدأت أول آياتها تعرض آخر ما حدث فيها، كأن ما حدث في آخرها أهم أحداثها، فماذا حدث في نهاية غزوة بدر؟.

حاز الصحابة البدريون رضي الله عنهم الغنائم التي غنموها من المشركين، وقيدوا الأسرى، قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (فينا أصحاب بدر نزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ حين اختلفنا في النَفَل وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء)(١).

وأصل النفل: الزيادة، وسميت الغنيمة به لأنها عطية من الله تعالى وفضل، تفضل الله تعالى به على الأمة المسلمة دون غيرها من الأمم.

ففي الحديث الشريف قال عليه الصلاة والسلام: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم لم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان،

---

(١) أي: عن سواء. ذكره ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد.

ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة»(١).

ولأن الغنيمة زيادة على ما يحصل للمجاهد من ثواب الجهاد، وبهذا المعنى يطلق اسم النافلة على الصلاة الزائدة على الواجب، كما في قوله تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾(٢).

كما يسمى ولد الولد نافلة لأنه زيادة على الولد، كما في قوله تعالى أيضاً: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين ﴾(٣).

والاختلاف أمر خطير، وله تأثير سلبي كبير، ولو أنه حدث قبل المعركة لأدى إلى نتائج خطيرة بتقدير الله تعالى، ولكنه سبحانه سلَّم، فحدث الاختلاف بعد أن تحقق النصر، وهزم الله تعالى المشركين شر هزيمة، وأنزل بهم بطشته الكبرى التي سبق وتوعدهم بها في قوله الكريم: ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾(٤).

ونزع الله تعالى سبب الاختلاف من أيديهم، وجعل أمر تقسيم الغنائم بيد رسول الله ﷺ، يقسمها بحسب ما يأمره تعالى ويشرع له، فقال جلّ وعلا: ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾: أي حكم الأنفال مختص بالله تعالى وبالرسول ﷺ، يقسمها حسب ما يأمره الله تعالى.

وقد بين تعالى كيفية قسمة الغنائم بعد ذلك في قوله: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه.. ﴾ الآية، كما سيأتي معنا، وقد أخر تعالى بيانه ليأتي متناسباً في موقعه من أحداث غزوة بدر.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الإسراء: الآية ٧٩.

(٣) الأنبياء: الآية ٧٢.

(٤) الدخان: الآية ١٦.

ولم يؤدِ الاختلاف الذي حدث بين الصحابة إلى خصام، فما تعدى أن يكون اختلافاً في وجهات النظر، انتهى برفعه إلى رسول الله ﷺ وسؤاله عنه، دل على ذلك قوله: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ فقد حسموا خلافهم عندما توجهوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه.

واهتمام السورة به لكونه بداية الشقاق والخصام المؤدي إلى التفرق والتحزب والضعف والخذلان، فمبادرة السورة إلى ذكره يدل على وجوب المبادرة إلى معالجة مثل هذه الأمور التي تطرأ على المجتمع المسلم، قبل أن تستفحل وتشتد وتمتد جذورها في جسم الأمة، وعندئذٍ تصبح المعالجة شاقة وبالغة الصعوبة، فمعالجة الداء قبل أن يستفحل أهون وأيسر، والأفضل من كل ذلك الوقاية من أسباب الخلاف والنزاع، والعمل على تجنيب الأمة كل ما يمكن أن يؤدي إلى الخصام والشقاق، وهو ما نلاحظه في تشريعات الإسلام، فقد حرم تعالى كل ما يمكن أن يكون سبب اختلاف وخصام بين المسلمين، كأكل الأموال بالباطل والغيبة والنميمة والسخرية والتكبر والتفاخر بالأحساب والأنساب. . . إلخ.

إصلاح ذات البين

وبعد أن جعلت الآية أمر الأنفال إلى الله تعالى وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام أمرتهم بثلاثة أمور هامة:

أولها: تقوى الله تعالى ﴿ فاتقوا الله ﴾ بترك الاختلاف والنزاع، فخشيته تعالى ومراقبته تزيل من النفس أسباب الاختلاف والنزاع.

وثانيها: ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾: أي أصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال إلفة ومحبة واتفاق(١)، قال تعالى: ﴿ إنما

---

(١) تفسير النسفي ٣/٤.

المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾(١)، وقال أيضاً: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً»(٣).

وقد حث ﷺ على إصلاح ذات البين، وبين خطورة الاختلاف على الدين فقال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة» قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»(٤).

وثالثها: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ في كل ما يأمران به وينهيان عنه، ويدخل فيه أمر الأنفال، ولا تتحقق طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ إلا بالتزام الكتاب الكريم والسنّة النبوية الشريفة.

ووقوع الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بطاعة الله ورسوله، يدل على أهمية الإصلاح وخطورته، فلا تتم التقوى ولا تكتمل الطاعة إلا به.

وأساس التقوى في ضمير الإنسان ووجدانه، في خوفه من الله تعالى وتعظيمه ومراقبته، وكل ذلك في القلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا» ويشير إلى صدره(٥).

---

(١) الحجرات: الآية ١٠.

(٢) آل عمران: الآية ١٠٥.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح.

(٥) رواه مسلم.

فإذا ما وجد في القلب شيء من أسباب الخلاف والنزاع كالبغضاء والشحناء والحقد والحسد، دل ذلك على ضعف التقوى، وكان سبباً لحرمان المسلم من نفحات رحمة الله تعالى في الأوقات المباركة.

وقد بين ﷺ هذا المعنى في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، منها «تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله عزّ وجلّ في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا»(١).

كما دل على أهمية هذه الأوامر الثلاثة قوله تعالى في ختام الآية: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ [١]: أي إن كنتم مؤمنين حق الإيمان فالتزموا بهذه الأوامر الثلاثة.

فالمراد الحث على التقوى والطاعة وإصلاح ذات البين والمسارعة إليها، فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث، وهي أيضاً أول أسباب النصر وأهمها، فالأمة التي تريد النصر يجب عليها أولاً أن تضم صفوفها وتصلح ذات بينها.

بين الخوف والرجاء

ثم بينت الآيات على وجه الاستئناف والحصر الظواهر الدالة على كمال الإيمان وقوته ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾: أي فزعت وخافت تعظيماً لشأنه جلّ جلاله، وخشيةً منه لمجرد ذكره سبحانه.

ومن المعلوم أن المؤمن كلما ازداد معرفة بالله تعالى وإيماناً به، ازداد تعظيماً له تعالى وخشية منه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له

---

(١) رواه مسلم.

خشية»(١) وكان عليه الصلاة والسلام كثير البكاء، ويقول لأصحابه «لو تعلمون ما أعلم - من جلال الله تعالى وعظمته - لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قال ذلك في خطبة له قال عنها أنس بن مالك رضي الله عنه: ما سمعت مثلها قط، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين(٢).

فالخوف من الله تعالى والبكاء من خشيته من علامات الصالحين المخبتين، الذين قال تعالى فيهم: ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾(٣) وقد عد عليه الصلاة والسلام من الأصناف السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»(٤).

ولا منافاة بين قوله تعالى هنا: ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ وبين قوله: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٥) لأنهما مقامان يجتمعان في قلب المؤمن، مقام تعظيمه وخشيته والخوف منه، ومقام الرجاء برحمته وفضله وإحسانه، وقد جمع تعالى بينهما في آية واحدة فقال: ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾(٦).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) المائدة: الآية ٨٣.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) الرعد: الآية ٢٨.

(٦) الزمر: الآية ٢٣. انظر تفسير الخازن ٣/٥.

وقد يكون الاطمئنان بذكر الله تعالى في ذهاب الهموم والأحزان عن قلب المؤمن عندما يذكر الله تعالى، وذلك بسبب ما يفيض عليه سبحانه من فيوضات كرمه وإحسانه عند ذكره ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾(١).

﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾: أي إذا قرئت عليهم آيات القرآن الكريم زادتهم تصديقاً بالله تعالى وبرسالة النبي ﷺ، فكل آية من آيات القرآن الكريم تزيد إيمانهم وتقويه بسبب زيادة الدلائل والبراهين، قال تعالى: ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾(٢) فالقرآن الكريم يثبت الإيمان في قلب المؤمن ويقويه، فهو نور على نور، كما قال تعالى: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ الآية(٣).

﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [٢]: أي يعتمدون عليه ويفوضون أمورهم إليه وحده، فلا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه، وهم يعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان(٤).

ومن أهم صفات المؤمنين العملية ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾: أي يؤدونها بشكل صحيح مستقيم كما شرعت، يحافظون على أوقاتها ويحرصون على تحصيل شروطها وإقامة أركانها وسننها وآدابها، مع الخشوع فيها لجلال الله تعالى وحده.

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [٣] الزكاة وسائر الحقوق الواجبة والمستحبة.

---

(١) البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) التوبة: الآية ١٢٤.

(٣) فصلت: الآية ٤٤.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٨٥.

المؤمنـون حقـاً

﴿ أولئك ﴾ المتصفون بهذه الصفات الخمس، وهي الخوف من الله تعالى، والإخلاص له وحده، والتوكل عليه، وإقامة الصلاة، والإنفاق من أموالهم في الوجوه الواجبة والمستحبة ﴿ هم المؤمنون حقاً ﴾: أي هم المؤمنـون حق الإيمان، الـذين بلغوا مـرتبة رفيعـة في الإيمان والصلاح، ولا يعني هذا أنهم وحدهم المؤمنون، فالقرآن الكريم نزل بلسان العرب وهم يقولون: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء(١).

ويؤكد هذا المعنى قوله سبحانه بعد ذلك ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾: أي لهم مقامات ومنازل رفيعة في الجنة على قدر صدقهم وصلاحهم، ففي الجنة درجات، كما أن في جهنم دركات، قال تعالى: ﴿ هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ﴾(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام»(٣)، وقال أيضاً: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(٤).

﴿ ومغفرة ﴾: أي ولهم أيضاً ستر لذنوبهم وتجاوز عنها، فضلاً منه سبحانه وهذا يدل على أن الإنسان مهما ترقى في درجات الإيمان والصلاح لا يخلو عن بعض الذنوب، ويبقى محتاجاً إلى مغفرة الله تعالى وعفوه، فلا ينبغي لأحد أن يعجب بعمله ويغتر بنفسه.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره عن عمرو بن مرة، المختصر ٢/٨٥.

(٢) آل عمران: الآية ١٦٣.

(٣) رواه الترمذي وحسنه.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

﴿ ورزق كريم ﴾ [٤] خالٍ عن الكدر والمنغصات؛ لأنه من رزق الجنة ونعيمها.

الإخراج من المدينة

وبعد أن وصفت الآيات الأولى في السورة ما حدث حول الغنائم من اختلاف في نهاية غزوة بدر، عادت لتحكي أحداث الموقعة العظيمة من بدايتها، وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ فخروج النبي ﷺ من بيته في المدينة المنوّرة، ليعترض قافلة لقريش مقبلة من بلاد الشام، كان بأمر الله تعالى ومشيئته، فهو خروج مشروع ملتبس بالحق، دل على أن اعتراض القافلة للاستيلاء على ما تحمل من أموال المشركين أمر مشروع؛ لأنهم كانوا أعداء للنبي ﷺ، آذوه وعذبوا أصحابه، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة المنوّرة، واستولوا على بيوتهم وأموالهم، فمن حق المسلمين أن ينتصروا لأنفسهم وأن يستردوا بما يأخذون من القافلة بعض أموالهم وحقوقهم، ومن حقهم أيضاً أن يعملوا على إضعاف عدوهم وكسر شوكته، بالاستيلاء على أموالهم، التي هي مصدر كبير من مصادر قوتهم وجبروتهم.

فالله سبحانه هو الذي أخرج النبي ﷺ بما أوحى إليه، وندب ﷺ أصحابه ليخرجوا معه.

قال ابن إسحاق: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها».

فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من

لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرٍو الغفاري فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة)[1].

وكان في خروج النبي ﷺ خير كبير له ولأصحابه، فما يختاره الله تعالى خير مما يختاره الإنسان لنفسه.

المجادلة في الحق

لقد كره فريق من المؤمنين التوجه إلى بدر لقتال جيش قريش الذي خرج من مكة لحماية القافلة، وأرادوا اعتراض القافلة، ولكن الله تعالى اختار لهم لقاء جيش المشركين، وظهر بعدذلك أن ما أراده تعالى واختاره خير مما اختاروه لأنفسهم.

وظهر هذا المعنى أيضاً في شأن الغنائم عندما نزعها من أيديهم وجعل أمر تقسيمها في يد النبي ﷺ، يقسمها كما يأمره ربه جلّ وعلا، ولو بقي أمر الغنائم في أيديهم لوقع الخصام والشقاق بينهم بعد أن ظهرت بوادره في اختلافهم.

والتشبيه الذي دل عليه حرف الكاف في قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك﴾ سيق لإبراز هذا المعنى، قال ابن كثير: (شبه به في الصلاح للمؤمنين، والمعنى أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم، كان هذا هو المصلحة التامة لكم، كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء، وهم النفير الذين خرجوا لإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم على

---

[1] سيرة ابن هشام ٢/١٨٢.

غير ميعاد رشداً وهدى ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ الآية(١).

فإخراج الله تعالى النبي ﷺ إلى قتال المشركين في بدر كان فيه خير كبير للإسلام والمسلمين، وكذلك ما شرعه سبحانه واختاره في أمر الغنائم كان فيه أيضاً الخير والصلاح للمؤمنين، فالله سبحانه يعلم وأنتم لا تعلمون، والخير فيما يختاره جلّ وعلا.

﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ [٥] القتال بسبب الميل الفطري إلى السلامة، كما مر معنا في قوله: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾، أو بسبب قلة عددهم وعدم استعدادهم لقتال عدوهم، وذلك أنهم خرجوا لاعتراض القافلة كما مر معنا، فكان عددهم لا يزيد على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وليس معهم سوى سبعين بعيراً يعتقبون عليها، ومعهم أيضاً فرسان فقط للزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما.

ومر معنا أن أبا سفيان علم بخروج النبي ﷺ، وأنه أرسل إلى قريش يستنفرهم إلى الخروج لحماية أموالهم، وإلى جانب ذلك غير الطريق التي كان يسلكها، فسلك طريقاً آخر قريباً من ساحل البحر، وتمكن بذلك من النجاة، وأرسل إلى قريش الذين خرجوا مع أبي جهل يخبرهم بنجاة أموالهم ويطلب منهم أن يرجعوا إلى مكة بعد أن سلمت أموالهم، ولكن أبا جهل أصر على المضي إلى بدر، وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم عليها ثلاثاً فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها(٢).

---

(١) البقرة: الآية ٢١٦، مختصر ابن كثير ٢/٨٦. وذكر أنه أول الأقوال التي ذكرها الطبري في تفسيره لهذه الآية.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/١٩١. الجزر: صغار الإبل، والقيان: المغنيات.

وعلم النبي ﷺ بعد أن خرج من المدينة بما حدث، فأخبر أصحابه بأن الله سبحانه وعده إحدى الطائفتين، إما الاستيلاء على القافلة وهي العير، أو الانتصار على النفير، وهو جيش المشركين.

ولكن فريقاً منهم كرهوا لقاء النفير، وتمنوا الاستيلاء على العير، وجادلوا النبي ﷺ في ذلك، وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿ يجادلونك في الحق ﴾ الذي أراد الله تعالى إظهاره بقتال المشركين والانتصار عليهم وكسر شوكتهم ﴿بعد ما تبيّن﴾ بعد أن أعلمهم الرسول ﷺ أن الله وعده إحدى الطائفتين العير أو النفير، وقد فاتتهم العير، فلا بد إذاً أن يظفروا بالنفير، وهم يعلمون صدق الرسول ﷺ.

﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ [٦] أسباب الموت، بسبب قلة عددهم وعدم تأهبهم، مع كثرة عدوهم وتأهبهم واستعدادهم.

العيـر أو النفيـر

ثم واجهتهم الآيات الكريمة بما أضمروه في قلوبهم، واختاروه لأنفسهم، بينما أراد الله تعالى لهم أمراً آخر أجل وأعظم مما اختاروه ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ الظفر بالقافلة أو النصر على جيش المشركين.

﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ فرغبتهم متوجهة إلى العير، ووداتهم منصبة عليها؛ لأنها لا خطر فيها.

و ﴿الشوكة﴾ السلاح أو حدته، وبهذا التعبير بين سبحانه سبب رغبتهم بالعير وكراهتهم للنفير، والحرص على الكسب بدون عناء ومشقة أمر فطري مركوز في جبلة الإنسان يدل على ضعفه ومحدوديته، والصحابة رضي الله عنهم بشر، شأنهم في هذا الأمر كشأن غيرهم من البشر.

وتدل الآية على كمال علم الله تعالى، وأنه يعلم السر وأخفى،

يعلم سبحانه كل ما يهجس في النفس البشرية من خواطر ورغبات وأماني ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيءٍ قدير﴾(١).

﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ ويريد الله سبحانه أن يثبت الإسلام ويعزه ويعلي أمره بما أوحى إلى رسوله ﷺ وأنزل عليه من الآيات الكريمة التي شرع فيها الجهاد وأمر به ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ [٧]: أي يستأصلهم ولا يبقي منهم أحداً، فالجهاد ماضٍ ما دام للكفر شوكة وقوة في الأرض تمنع انتشار الإسلام، وتحول بينه وبين الناس.

﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾: أي شرع سبحانه ما شرع من الجهاد والقتال وجمع بين المسلمين والمشركين في بدر على غير ميعاد، لكي يثبت الحق ويعز دينه ويظهره، ويدحض الباطل ويقمعه ويدحره ﴿ولو كره المجرمون﴾ [٨]: أي ولو كره ذلك المشركون الكافرون، فإرادته تعالى هي الغالبة، ومشيئته سبحانه التامة النافذة، والتسليم لأمره تعالى والانقياد لمشيئته دون أدنى اعتراض من أهم أسباب النصر.

وهذا يكشف لنا جانباً من جوانب عظمة غزوة بدر، فقد كانت هذه الغزوة البداية لعزة الإسلام وظهوره وارتفاع راياته في جنبات الأرض.

وكان البدريون من الصحابة رضي الله عنهم طليعة المجاهدين ورواد الجهاد الأول، الذين شقوا الطريق لكل من سار عليه بعدهم واقتفى آثارهم إلى يوم الدين، فلا عجب أن يكون لهم رضي الله عنهم امتياز على غيرهم حتى قال ﷺ يبين فضلهم ومكانتهم عند ربهم «اطلع الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(٢)، وعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ

---

(١) آل عمران: الآية ٢٩.

(٢) رواه أبو داود.

فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟»، فقال: من أفضل المسلمين قال: «وكذلك من شهد بدراً من الملائكة عليهم السلام»(١).

الدعاء عند اللقاء

وتابعت الآيات تصف ما حدث قبل المعركة ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾: أي تسألون الله تعالى وتطلبون منه الغوث والنصر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: «يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ فأمده الله تعالى بالملائكة»(٢).

فعلى الأمة التي تريد النصر أن تتوجه إلى الله تعالى بخشوع وخضوع، تدعوه وتسأله النصر، بعد أن تستكمل الأسباب المادية في الإعداد والاستعداد التي أمر تعالى بها كما سيأتي معنا.

وعلى المجاهدين بشكل خاص أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء عند اللقاء في ميدان المعركة، فالدعاء أقرب إلى الإجابة في هذا الموطن كما فعل النبي ﷺ في بدر، وفعله أصحابه أيضاً.

واستجاب سبحانه وتعالى لهم، وقال: ﴿فاستجاب لكم أني

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه مسلم.

ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ [٩] متتابعين، فالاستجابة أعقبت الدعاء، وقد روي أن النبي ﷺ لما ناشد ربه خفق ﷺ خفقة، وهو في العريش الذي بنوه له ليتخذه مقراً لقيادته، ثم رفع رأسه فقال: «يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس، يقوده على ثناياه النقع»(١).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب».

ثم خرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ ثم نزل إلى أرض المعركة فأشار إلى مصارع من سيقتل من رؤوس المشركين قائلاً: «هذا مصرع فلان، ويضع يده على الأرض، هٰهنا وهٰهنا.» قال أنس بن مالك راوي الحديث: «فوالله ما ماط أحد منهم عن موضع يد رسول الله ﷺ»(٢).

البشـارة بالنصـر

ولكي تبقى قلوبهم متجهة إليه وحده جلّ جلاله، فلا يعتمدوا في النصر على غيره قال: ﴿ وما جعله إلا بشرى ﴾: أي وما جعل الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر، فإن ذلك يشد من عزيمة المقاتل، ويرفع معنوياته، ويزداد ثباتاً وإقداماً ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾: أي ولتسكن بهذا الإمداد قلوبكم، فيزول ما كان بها من خوف وقلق بسبب قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وهذا ما تستهدفه برامج التوجيه المعنوي للجنود في العصر الحاضر، فإن قادة الجيوش يحرصون أشد الحرص على رفع معنويات جنودهم بشتى وسائل التوجيه، كما يحرصون على إزاحة الخوف والقلق عن نفوسهم وقلوبهم، فالجندي إذا استبد به الخوف وسيطر عليه القلق

---

(١) سيرة ابن هشام ١٩٦/٢. والنقع: الغبار.

(٢) رواه مسلم. ما ماط: ما مال ولا عدل.

لا يثبت في أرض المعركة ولا يصبر على أهوالها، ويعد نجاح القائد في رفع معنويات جنوده سبباً هاماً من أسباب النصر.

﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ فلا تحسبوا أن النصر من الملائكة، إنما النصر من الله تعالى، منوط بمشيئته وحده وقدرته، ومشيئته سبحانه طليقة نافذة، وقدرته كاملة، فلا يحتاج إلى وسائل وأسباب ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾⁽¹⁾ ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾⁽²⁾.

وما شرع الله الجهاد وكلف المؤمنين بأعباء القتال إلا ابتلاء لهم واختباراً، قال سبحانه: ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾⁽³⁾.

كما أن قتل المؤمنين للكافرين في ميدان المعركة أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾⁽⁴⁾ فقتل صناديد قريش كأبي جهل بأيدي المؤمنين أنكى للمشركين من موتهم بقارعة أو صاعقة، وأشفى لصدور المؤمنين⁽⁵⁾.

﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يغلب ﴿ حكيم ﴾ [١٠] في تدبيره وشرعه.

النوم في الميدان

ومما يدل على حكمته سبحانه وكمال قدرته أنه جعل الصحابة البدريين ينامون مطمئنين ليلة المعركة كأنهم في بيوتهم وعلى فرشهم لا

---

(١) يٓسن: الآية ٨٢.

(٢) القمر: الآية ٥٠.

(٣) محمد: الآية ٤.

(٤) التوبة: الآية ١٤.

(٥) انظر: مختصر ابن كثير ٢/ ٩٠.

في ميدان القتال قرب عدوهم، ومن المعلوم أن الخائف القلق لا يستطيع النوم، فلا يغمض له جفن ولا يهدأ له قلب، ولكن الصحابة رضي الله عنهم ناموا في ميدان القتال متوسدين رمال بدر، مطمئنين آمنين، فكان نومهم من نعم الله تعالى عليهم، ذكرهم به في قوله الكريم: ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾: أي اذكروا فضله سبحانه عليكم عندما جعل النعاس يغلب عليكم، فنمتم آمنين مطمئنين بأمان الله تعالى وحفظه ورعايته، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مـا كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح(١).

وأنزل الله عليهم المطر في تلك الليلة ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ من الحدث الذي أصابهم في نومهم ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ ويبعد عنكم وساوس الشيطان ونزغاته، وكانت الأرض التي نزلوا بها أرضاً رملية غير متماسكة تغوص فيها الأقدام، وقد استغل الشيطان ذلك وألقى في نفوسهم الوساوس، خوفهم بها من عواقب النزول في هذه الأرض، فرد الله كيده بالمطر الذي أنزله عليهم، وثبت به رمال الأرض فتلبدت، كما ثبت الله تعالى به قلوبهم فقواها ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ وهي شجاعة الباطن ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ [١١] وهي شجاعة الظاهر.

وقد أشارت الآية إلى أمرين هامين، لهما تأثير كبير على سير المعركة:

أولهما: ينبغي لأمير الجند أن يحرص على تأمين راحة جنوده النفسية والبدنية قبل المعركة.

ثانيهما: وعليه أيضاً أن يحسن اختيار الأرض المناسبة للقتال،

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٩٠.

بحيث يتمكن الجنود من سهولة الحركة وسرعة المناورة، كما تساعد على حمايتهم من عدوهم، وقد فعل النبي ﷺ هذا قبل المعركة، فعندما وصل عليه الصلاة والسلام إلى بدر نزل على أول ماء فيه، فقال له الحباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغورت⁽¹⁾.

وهكذا تمكنوا من الماء وسيطروا عليه، كما ثبت الله تعالى لهم الأرض فأصبح سيرهم عليها سهلاً ميسوراً.

مهمة الملائكة في بدر

ثم بينت الآيات مهمة الملائكة الذين أمد الله بهم المؤمنين في بدر ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ في تأييد المسلمين وتثبيتهم ونصرهم ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ بما تلقونه في قلوبهم من التبشير بالنصر والتشجيع، وللمَلَك قوة على إلقاء معاني الخير في نفس الإنسان، كما أن للشيطان قوة على الوسوسة في قلب الإنسان، ويسمى ما يلقي المَلَك لمة وإلهاماً، وما يلقيه الشيطان وسوسة⁽²⁾.

ويؤيد ذلك الحديث النبوي الشريف «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٩٢، والقُلُب: الآبار.

(٢) انظر: تفسير الخازن ٣/١٨.

الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم»(١).

﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ وهو جندي من جنود الله، أيد به نبيه ﷺ في معارك كثيرة، منها معركة بدر، ومر معنا قوله ﷺ: «ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر».

ففي غزوة بني قريظة ألقى الله الرعب في قلوبهم، فنزلوا من حصونهم المنيعة مستسلمين، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾(٢).

وفي غزوة تبوك ألقى الله الرعب في الجموع المحتشدة من الجيوش الرومانية عندما سمعوا بخروج النبي ﷺ لقتالهم من المدينة المنوّرة، وكان بينهم وبينه مسيرة شهر، وعندما وصل عليه الصلاة والسلام إلى تبوك لم يجد جيشاً ولم يلقَ حرباً.

﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾: أي فاضربوا أيها المؤمنون فوق رقاب الكفرة لكي تقطعوا رؤوسهم، كما قال تعالى: ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ الآية(٣).

ورأى بعض المفسرين أن الأمر بالضرب موجه إلى الملائكة، وأنهم شاركوا فعلاً في القتال، واستندوا إلى بعض الروايات الدالة على مشاركة الملائكة في القتال، لكن قوله تعالى السابق: ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ﴾ يدل على أن مهمة الملائكة كانت

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان.

(٢) الأحزاب: الآية ٢٦.

(٣) محمد: الآية ٤.

لتثبيت المؤمنين وتبشيرهم ورفع معنوياتهم، ومن المعلوم أن للملك قوة لا تعادلها أي قوة للبشر، فملك واحد يكفي لإهلاك جيش المشركين بأجمعه، ولا يحتاج الأمر إلى ألف من الملائكة مردفين.

﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ [١٢] وهي أطراف أصابع اليدين، جمع بنانة، والمعنى: إذا لم تتمكنوا من الضرب فوق أعناقهم، فاضربوهم في أي مكان ولو كان رؤوس أصابعهم، فإن ذلك يؤدي إلى إثخانهم بالجراح وإضعافهم وهزيمتهم.

ولا شك أن قطع رؤوس أصابع المقاتل يعوقه عن القتال، ويمنعه من استعمال سلاحه، فعلى هذا يمكن أن يكون تكرير لفظ ﴿ اضربوا ﴾ أريد به توجيه المؤمنين إلى موطن من مواطن الضعف عند أعدائهم، وهو مكشوف للمجاهدين يسهل عليهم الوصول إليه.

فالآية الكريمة توجه المجاهدين إلى ضرب العدو في مقاتله، وتلفت أنظارهم إلى مواطن الضعف عند عدوهم ليضربوه من خلالها، وهو أمر يحرص عليه كبار القادة العسكريين، قبل المعركة يبحثون بواسطة أجهزة استخباراتهم عن نقاط الضعف عند عدوهم لكي يضربوه من خلالها، دون أن تلحق بقواتهم خسائر كبيرة.

﴿ ذلك ﴾: أي هذا الأمر بضربهم على رقابهم ورؤوس أصابعهم ﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ لأنهم خالفوا أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، فساروا في شق وطريق يخالف الطريق الذي شرعه الله تعالى وسار عليه الرسول ﷺ.

﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ [١٣] وما أنزله بهم في بدر شيء قليل من عقابه تعالى وعذابه الذي أعده لهم يوم القيامة.

ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى المشركين تبكيتاً لهم وتقريعاً

﴿ ذلكم ﴾ العقاب والعذاب ﴿ فذوقوه ﴾ اعرفوا طعمه، فهو مقدمة لعذاب أكبر ينتظركم ﴿ وأن للكافرين عذاب النار﴾ [١٤].

ولعل هذا ما أراده ﷺ عندما وقف على الحفرة التي أُلقيت فيها جثث قتلى المشركين في بدر، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم، فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيَّفوا؟ قال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»(١).

وهذا يدل على أن عذاب القبر حق، وقد ذكر هذا الحديث في صحيح مسلم لإثبات عذاب القبر.

الثبات عند الضربة الأولى

وبعد أن تحدثت الآيات الكريمة عما حدث قبل بدء القتال في بدر، التفتت إلى المؤمنين تخاطبهم، تأمرهم بالثبات عند لقاء العدو والشروع بالقتال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾ مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال(٢).

﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ [١٥] فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم، ولو كانوا أكثر عدداً وعدة منكم، فكلمة ﴿ زحفاً ﴾ تدل على كثرتهم بحيث يرى الجيش لكثرتهم كأنه يزحف.

وأهم عنصر في المعركة يحقق النصر الثبات في وجه العدو عند

---

(١) رواه مسلم.

(٢) تفسير الخازن ٣/ ٢٠.

أول اللقاء، قال عليه الصلاة والسلام: «الصبر عند الصدمة الأولى»(١)، وقال أيضاً: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»(٢).

ولهذا يعمد القادة المحنكون إلى توجيه أقصى قوتهم إلى عدوهم في الضربة الأولى لكي يشيعوا الذعر والخوف في قلوب جنود العدو، ويحدثوا الخلل والاضطراب في صفوفه، فالثبات في وجه الضربة الأولى يقرر غالباً نتيجة المعركة بتقدير الله تعالى، فهو أمر خطير وحاسم في المعارك، ولهذا توعدت الآيات الكريمة الذين لا يثبتون في وجه العدو بأشد أنواع الوعيد ﴿ ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتال ﴾: أي إلا إذا كان يريد الكر بعد الفر، وتظاهر بالفرار أمام العدو ليخدعه ويستدرجه ليتمكن منه، فمخادعة العدو في الحرب أمر جائز ومشروع، قال عليه الصلاة والسلام: «الحرب خدعة»(٣).

﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أو ترك القتال لينحاز وينضم إلى جماعة مسلمة من جنود المسلمين محتاجين إلى معونته ومساعدته، كما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما ترك قتال الفرس في العراق، وانحاز مع بعض جنوده إلى جند المسلمين في بلاد الشام، تنفيذاً لأمر الخليفة أبي بكر رضي الله عنه.

ويمكن أن يقال في معنى الآية: إنه اضطر إلى الانسحاب من وجه العدو فانسحب انسحاباً منظماً وانضم إلى ولي أمر المسلمين، ليعيد تنظيم صفوفه ويعود إلى القتال مرة ثانية، ولهذا قال بعض المفسرين: المتحيز الفار إلى النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه(٤)، وقد فعل الصحابة رضي الله عنهم في معركة مؤتة مثل هذا

(١، ٢، ٣) رواه مسلم.

(٤) مختصر ابن كثير ٢/٩٢.

الانسحاب أو التحيز، فقد فوجئوا بجموع كثيرة من جيوش الروم تزيد على مائة ألف، بينما كان عدد الصحابة ثلاثة آلاف، ومع ذلك قاتلوهم وثبتوا في وجوههم حتى استشهد أمراؤهم الثلاثة: جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، ولما استلم خالد بن الوليد الإمرة تمكن من الانسحاب والرجوع بالجيش إلى المدينة المنوّرة وجعل الناس عندما وصلوا يحثون عليهم التراب ويقولون: يا فرار فررتم في سبيل الله، فيقول الرسول ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاءالله»(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة، فكنت في من حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة ثم بتنا ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «لا بل أنتم العكارون، أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين» فأتيناه حتى قبلنا يده، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾(٢).

فالانسحاب من أرض المعركة جائز في مثل هاتين الحالتين المذكورتين في الآية الكريمة، ويجب أن يكون انسحاباً منظماً لإعادة الكرة واستئناف القتال، أما إذا كان انسحاباً كيفياً، بحيث ينسحب كل جندي كما يحب ويشتهي بدون هدف ولا نظام، فهو الهزيمة المحرمة في الإسلام، والتي ينطبق على من يفعله قوله تعالى: ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾: أي رجع وهو متلبس بغضب الله تعالى وآثار سخطه ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ [١٦] قال ابن كثير رحمه الله: إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر؛ لما رواه

---

(١) سيرة ابن هشام ١٧/٤.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف الغافلات المحصنات المؤمنات»(١).

المعركة

وفي صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة حدثت المعركة، وبدأ القتال بالمبارزة، وخرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وقصد إلى حوض المسلمين ليشرب منه ويهدمه، فتصدى له حمزة رضي الله عنه فقتله داخل الحوض.

ثم خرج من المشركين عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فدعوا إلى المبارزة فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، فأنفوا عن مبارزتهم، ونادى مناديهم: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فأخرج لهم رسول الله ﷺ ثلاثة من بني هاشم: عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وحمزة وعلي رضي الله عنهم، فقتل المشركون الثلاثة، وجرح عبيدة، وحمل إلى رسول الله ﷺ ومات رضي الله عنه بعد ذلك بجوار النبي ﷺ.

وبدأ القتال بهجوم شنه المشركون، وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يثبتوا لهجوم المشركين وأن يردوهم بالنبال وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل»(٢).

ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى الميدان بنفسه، فأخذ حفنة من

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٩٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/١٩٥.

تراب الأرض ورماها في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه»(١).

فما بقي أحد من المشركين إلا دخل في عينيه من تراب هذه الرمية، وأمر ﷺ أصحابه أن يشدوا على المشركين ويهجموا عليهم، وقال محرضاً لهم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير بن الحمام من فتيان الأنصار، وفي يده تمرات يأكلهن: بخٍ بخٍ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل(٢).

ونجح هجوم الفئة القليلة المسلمة الصابرة، وقد ملأ الرعب قلوبهم، بعد أن خلفوا وراءهم سبعين قتيلاً، فيهم رأس الشرك أبو جهل عمرو بن هشام، وسبعين أسيراً.

تأديب المنتصرين

وكي لا يصيب المؤمنين زهو المنتصرين وفخرهم وإعجابهم بجهادهم وأنفسهم، أنزل تعالى عليهم مؤدباً لهم ومذكراً لهم بأنه هو الذي نصرهم، وهو الذي قتل من قُتل من أعدائهم: ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾: أي لم تقتلوهم بقوتكم، ولكن الله قتلهم بمشيئته وقدرته، وبمعونته وتأييده لكم ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾: أي وما كنت الرامي على الحقيقة عندما رميت التراب في وجوههم، ولكن الله هو الذي رمى؛ لأنه سبحانه هو الذي أوصل التراب والرمال إلى أعينهم.

وتدل الآية على أن الله تعالى خالق للعبد ولأفعاله، وأن أفعال العبد وإن كانت كسباً له فهي من خلقه سبحانه وبمشيئته وقدرته.

---

(١) رواه الطبراني وإسناده حسن كما في مجمع الزوائد. وفعل عليه الصلاة والسلام ذلك أيضاً في غزوة حنين كما رواه مسلم.

(٢) سيرة ابن هشام ١٩٦/٢.

والله تعالى يبتلي عباده بالمحنة والنعمة، وقد ابتلى تعالى المؤمنين بالنصر في بدر ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً ﴾ وكانت نتيجته حسنة طيبة، إذ كانوا رضي الله عنهم أهلاً للنصر الذي أنعم الله تعالى به عليهم.

﴿ إن الله سميع ﴾ لأقولهم ﴿ عليم ﴾ [١٧] بأحوالهم.

ثم بشرهم سبحانه بأن كيد الكافرين ومكرهم صائر إلى الضعف والاضمحلال ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ [١٨] لأنه تعالى مع عباده المؤمنين المتقين ينصرهم ويؤيدهم.

وتأكيداً لهذه الحقيقة التفتت الآيات إلى الكافرين المنهزمين تقرعهم وتتهكم بهم ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ وذلك أن أبا جهل دعا مستفتحاً في أول القتال فقال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يُعرف فأحنه الغداة(١)، أي: اجعله مدحوراً مهزوماً.

﴿ وإن تنتهوا ﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﷺ ﴿ فهو خير لكم ﴾ في الدنيا والآخرة، فلقد جاءهم الإسلام بعز الدنيا وسعادة الآخرة.

﴿ وإن تعودوا ﴾ لمحاربته عليه السلام ﴿ نعد ﴾ لنصره وتأييده.

﴿ ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾: أي مهما كانت الجموع التي تحشدونها كبيرة فلن تنفعكم شيئاً؛ لأنه تعالى مع المؤمنين ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ [١٩] يؤيدهم وينصرهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٩٦.

الفصل الثاني

الأسباب غير المباشرة للنصر

طاعة الله ورسوله ﷺ

وبعد أن بينت الآيات الكريمة الماضية أسباب النصر المباشرة في المعركة والتي يجب تحصيلها قبل القتال وفي أثنائه، شرعت الآيات تبين الأسباب غير المباشرة للنصر، والتي تبقى بها الأمة المسلمة قوية عزيزة منيعة.

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ﴾ فهو كقوله تعالى في صدر السورة ﴿ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ وقد أمرت الآية بطاعة الله ورسوله في شأن الأنفال، وأما هذه الآية فقد أمرت بالطاعة العامة الشاملة في جميع شؤون الحياة، ولهذا حذر سبحانه بعدها من الإعراض عن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ بقوله: ﴿ ولا تولوا عنه ﴾: أي لا تعرضوا عن الرسول ﷺ، فطاعته طاعة لله تعالى، كما في قوله: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾(١) فهو ﷺ المبلغ عن الله تعالى، فطاعته لازمة كطاعة الله تعالى.

﴿ وأنتم تسمعون ﴾ [٢٠] أي طاعته واجبة عليكم بعد أن علمتم ما دعاكم إليه وبعد أن بلغكم رسالة الله تعالى.

فكل من بلغته رسالة الإسلام أو سمع شيئاً من القرآن الكريم وفهم

---

(١) النساء: الآية ٨.

معانيه، قامت عليه الحجة ولزمته الإجابة، وعليه طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، ويجب على الأمة المسلمة التي تسمع كلام الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار أن تلتزم بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام باتباع أحكام الكتاب الكريم والتمسك بسنّته عليه الصلاة والسلام، كما يجب عليها أن تعرض عن كل الشرائع الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، فسماع القرآن الكريم يلزم السامع بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه السلام، ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ بآذاننا ﴿وهم لا يسمعون﴾ [٢١] بقلوبهم وجوارحهم وسلوكهم، ويعرضون عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه السلام.

وهذا كان حال المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالسماع والطاعة، بينما هم يضمرون العصيان والمخالفة، قال تعالى فيهم ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾(١).

وكذلك كان اليهود أيضاً في المدينة المنوّرة إذا سمعوا النبي ﷺ قالوا: سمعنا وعصينا، كما جاء في قوله تعالى عنهم: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾(٢).

وهذا مع الأسف حال كثير من المسلمين في العصر الحاضر، يسمعون كلام الله تعالى ويتظاهرون بالتأثر بمواعظه وزواجره، وفي

---

(١) النساء: الآية ٨١.

(٢) النساء: الآية ٤٦.

الوقت نفسه يظلون مصرين على معاصيهم وآثامهم، قال القرطبي رحمه الله: دلت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله، فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي واقتحمها فأي سمع عنده وأي طاعة!؟(١).

ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء شرّ الخلق والخليقة، فقال: ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم ﴾ عن سماع الحق سماع إجابة وخضوع وانقياد ﴿ البكم ﴾ عن الإقرار بالحق وإعلان الانقياد له والرضا به ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ [٢٢]: أي لا يستعملون عقولهم فيما خلقت من أجله، وهو التمييز بين الحق والباطل، فهؤلاء شر الدواب لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله تعالى فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا لطاعته تعالى وعبادته فكفروا؛ ولهذا شبهتهم بالأنعام في قوله تعالى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾(٢).

ثم بين تعالى أنه لا خير في هؤلاء وأن نفوسهم قد غلب عليها الخبث والشر فقال: ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ سماع الإجابة والخضوع والانقياد، وسماع الفهم والانتفاع ﴿ ولو أسمعهم ﴾ سماع الانتفاع بعد أن علم أنه لا خير فيهم ﴿ لتولوا وهم معرضون ﴾ [٢٣]: أي لأعرضوا عن الحق ولم ينقادوا له رغم معرفتهم أنه حق، وهو حال المعرضين عن الحق عناداً واستكباراً كفرعون وملئه، فقد رأوا المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام واستيقنوا بدلالتها على صدق موسى،

---

(١) تفسير القرطبي ٣٨٨/٧.

(٢) الأعراف: الآية ١٧٩.

ومع ذلك جحدوها ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾(١).

الحياة والجهاد

ثم كرر تعالى النداء للمؤمنين: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ﴾ بطاعتهما والانقياد لأمرهما ﴿ إذا دعاكم ﴾ الرسول ﷺ، فهو المبلغ عن الله تعالى ﴿ لما يحييكم ﴾ الحياة الإنسانية الكريمة الطيبة، الحياة العزيزة المنيعة.

وفي الآية الكريمة دعوة إلى الاستجابة المطلقة لله تعالى ولرسوله عليه السلام، ولكن مجيئها في سياق آيات الجهاد وفي سورة الأنفال التي نزلت بمناسبة غزوة بدر يجعل الدعوة في الآية دعوة مخصوصة إلى الجهاد، فالأمة المجاهدة هي التي تحيا الحياة الحقيقية، الحياة الكريمة اللائقة بالإنسان الذي كرمه ربه وسخر له كثيراً من مخلوقاته.

وقد يقول قائل: كيف يكون الجهاد حياة وفيه القتل والموت؟! وأقول: القتل بالنسبة للمجاهد في سبيل الله تعالى حياة أعلى وأشرف من الحياة الدنيا، حياة برزخية خاصة يكرم الله تعالى فيها الشهداء بنعيم الجنة ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾(٢).

وأما بالنسبة للأمة المسلمة المجاهدة، فالجهاد يعطيها الحياة الكريمة العزيزة المنيعة، وبهذا يكون الجهاد حياة للمجاهدين الشهداء، وحياة للمجاهدين الأحياء، ويؤكده أنه عندما أراد بعض الأنصار ترك الجهاد والانصراف إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية بعد أن أعز الله الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجاً أنزل الله تعالى فيهم قوله

---

(١) النمل: الآية ١٤.

(٢) آل عمران: الآية ١٦٩.

الكريم: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾(١).

فالإعراض عن الجهاد والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله هو الهلاك لأنه يؤدي بالأمة إلى الذلة والاستكانة وتمكن عدوها منها.

وينبغي أن تكون الاستجابة لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام عن طواعية واختيار ورغبة ومحبة، لا عن قهر وإكراه وإجبار، ولهذا قال سبحانه: ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ فالقلوب بيده سبحانه ولا سلطان للإنسان على قلبه، ولا يستطيع أن يتحكم بعواطفه ومشاعره، فمن علم الله فيهم خيراً وفقهم إلى الاستجابة لدعوة رسوله عليه السلام وشرح صدورهم لذلك، ومن علم أن نفوسهم ودخائلهم يغلب عليها الخبث والشر حال بينهم وبين الاستجابة لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾(٢) وقد سبق أيضاً مثل هذا في قوله تعالى: ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾.

فالآية تحرض المؤمنين على المبادرة فوراً إلى الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ، وتحذرهم من عواقب التثاقل عنها وتأخيرها، وكأنها تقول لهم: ما دامت قلوبكم مقبلة على الإيمان، فبادروا إلى تلبية دعوة الرسول ﷺ، فإن القلوب بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء، ولهذا علمنا سبحانه أن ندعوه قائلين ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾(٣)، وكان النبي ﷺ يكثر أن يقول تعليماً لنا: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(٤).

---

(١) البقرة: الآية ١٩٥.

(٢) البقرة: الآية ٢٦.

(٣) آل عمران: الآية ٨.

(٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

﴿ وأنه إليه تحشرون ﴾ [٢٤]: أي واعلموا أيضاً أنكم إلى الله تعالى يوم القيامة تجمعون، فيجازيكم أو يثيبكم على حسب استجابتكم لدعوة رسوله عليه الصلاة والسلام.

التحذير من الفتن

ويترتب على مخالفة الرسول ﷺ وعدم الاستجابة لدعوته، التعرض للفتن والمصائب والنوازل، قال تعالى: ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾(١).

فما من فتنة أصابت المسلمين بعده عليه الصلاة والسلام، إلا بسبب مخالفتهم لأمره، أو تركهم لسنّته، ولهذا جاء التحذير من الوقوع في الفتن بعد الأمر بالاستجابة لدعوته عليه السلام مباشرة، قال تعالى: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾: أي اجعلوا بينكم وبين البلاء العام وقاية، بإصلاح ذات بينكم، واجتماع كلمتكم على أمر الله، ورد من خالف إلى أمر الله(٢).

فطاعة الله ورسوله وقاية من الفتن، بينما المعاصي والآثام أسباب البلاء والفتن، وشرها يصيب العصاة وغيرهم من أبناء المجتمع، لأنهم سكتوا على المعاصي، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا(٣) على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوْا جميعاً»(٤).

---

(١) النور: الآية ٦٣.

(٢) نظم الدرّر ٢٥٧/٨.

(٣) أي اقتسموها بالقرعة.

(٤) رواه البخاري والترمذي.

فالله سبحانه يعذب العامة بذنوب الخاصة إذا انتشرت المنكرات والفواحش بينهم، ففي الحديث الشريف عن أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله عنها، قالت: استيقظ رسول الله ﷺ محمرّاً وجهه وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «نعم إذا كثر الخبث»(١).

وشُؤْم المعاصي والمنكرات يعم جميع أبناء المجتمع في الدنيا فقط، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم»(٢).

فالفتنة إذا عُملت هلك الكل، وذلك عند ظهورالمعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغيَّرْ وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها(٣).

ثم ختم سبحانه الآية مؤكداً التحذير من مخالفة أمره، ببيان شدة عقابه ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ [٢٥].

والجدير بالذكر هنا أن انتشار المعاصي وشيوع المنكرات في المجتمع، من أكبر أسباب الهزيمة والتخلف، لأنه يؤدي إلى الانحلال والفوضى والاختلاف.

مأوى المجاهدين

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم نواة الأمة المسلمة، وأول من حمل رسالتها وحفظ أماناتها، وقام على نشرها وتبليغها بعد رسول الله ﷺ

---

(١) متفق عليه، انظر، العواصم من الفتن في سورة الكهف.

(٢) رواه البخاري.

(٣) تفسير القرطبي ٧/٣٩٢.

وجَّه سبحانه إليهم الخطاب في سياق هذه الآيات، ذكرهم فيه بفضله تعالى عليهم، لكي يعرفوا مدى مسؤوليتهم، وثقل التبعة الملقاة عليهم ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾ أرض مكة ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم ﴾ في المدينة المنوّرة، وجعلها لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم، كما جعلها قاعدة انطلاق وارتكاز لكم في جهادكم، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ في بدر، وفي غيرها من الغزوات والمعارك.

وتدل الآية على أهمية الأرض التي تكون للمجاهدين بمثابة قاعدة الانطلاق لهم في جهادهم، كما تكون حصناً لهم يتحصنون به ويأوون إليه.

ولهذا كان ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج عندما كان في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، يبحث عن مأوى يتخذه مع أصحابه قاعدة انطلاق لتبليغ رسالة الإسلام ونشره بين الناس، وما أنزل الله تعالى آيات الجهاد وكلف المسلمين به حتى وجد النبي ﷺ القاعدة والمأوى في المدينة المنوّرة، فالمأوى وقاعدة الانطلاق ونقطة الارتكاز، ضرورة من ضروريات الجهاد، ينبغي للمجاهدين أن يحصلوها قبل الشروع في الجهاد.

﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ بالغنائم التي أحلها لكم، كما مر معنا.

﴿ لعلكم تشكرون ﴾ [٢٦] الله تعالى على فضله بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام.

التحذير من الخيانة

للخيانة دور كبير في الفشل والهزيمة، وهي لا تعني فقط موالاة العدو خفية، وإفشاء أسرار المجاهدين، وإيصالها إلى العدو، وتمكينه من معرفة نقاط الضعف في المجتمع الإسلامي عامة، وفي صفوف

المجاهدين خاصة، الخيانة في نظر الإسلام أشمل من هذا، إن أي خلل ونقص يحدثه المسلم في عمله الذي كُلف به في شؤون دينه ودنياه، يعد خيانة للأمانة التي يحملها، ويحمل المسلم أمانات كثيرة.

ولهذا توجهت الآيات بالخطاب إلى المسلمين تذكرهم بمسؤوليتهم عن الأمانات التي يحملونها، وتحذرهم من خيانة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وخيانة الأمانات التي كلفوا بحملها والمحافظة عليها ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ [٢٧] تبعة الخيانة، أو تعلمون أنكم تخونون، فالخيانة صدرت منكم عن قصد وعمد، لا عن سهو وخطأ(١).

ولما كان الباعث على الخيانة الحرص على المصالح المادية في الأموال والأولاد غالباً، قال سبحانه: ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾: أي اختبار وامتحان من الله تعالى لكم، هل تطيعونه تعالى في أموالكم وأولادكم، أم تعصونه وتخونون أماناتكم من أجل أموالكم وأولادكم. وذكر بعضهم أنها نزلت في أبي لبابة عندما أشار إلى يهود بني قريظة وهم محاصرون بأن الحكم فيهم القتل(٢) وقد حذر سبحانه من الافتتان بالأموال والأولاد في عدد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾(٣) وقوله أيضاً: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾(٤).

﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ [٢٨] فثوابه سبحانه وجناته خير لكم

---

(١) انظر تفسير النسفي ٣/٣١.

(٢) انظر تفصيل القصة في السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٤٣.

(٣) المنافقون: الآية ٩.

(٤) التغابن: الآية ١٤ ـ ١٥.

من الأموال والأولاد، الذين لا يغنون عنكم شيئاً يوم القيامة، ثم يأتي النداء الرابع من الله تعالى للمؤمنين جامعاً لكل ما تقدم بأسلوب الترغيب، لا بأسلوب الوعيد والتحذير ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ أي يجعل لكم نوراً وهداية في قلوبكم تفرقوا بها بين الحق والباطل، فترون الحق بجماله وضيائه، وترون الباطل بقبحه وظلمته، فإن من اتقى الله تعالى بفعل أوامره وترك زواجره، وُفّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته، ومخرجه في الدنيا، وسعادته يوم القيامة(١) قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾(٢).

فالفرقان: مصدر زيدت فيه الألف والنون، وأريد به الوصف الفارق بين الحق والباطل(٣) فالتقوى تورث صاحبها النظر السديد والرأي الثاقب والقدرة على التمييز بين الخير والشر.

﴿ ويكفر عنكم سيئآتكم ﴾ بسترها ﴿ ويغفر لكم ﴾ ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها، فضلاً منه سبحانه ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ [٢٩].

المؤامرة

ثم شرعت الآيات تبين بعض جرائم المشركين وإعراضهم عن الحق وعنادهم وضلالهم، وكأنه تعالى بهذه الآيات أراد أن يبين لنا ضرورة مجاهدة الكفار وقتالهم وكسر شوكتهم ووضع حد لفسادهم وإفسادهم، فتشريع الجهاد أمر ضروري، وفيه حِكَم كثيرة وكبيرة، ولا بد لأمثال هؤلاء المجرمين المعاندين من قوة تدفعهم وتقمعهم، وتمنع عن الناس شرهم وضلالهم.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٩٩.

(٢) الحديد: الآية ٢٨.

(٣) أضواء البيان ٢/٣٤٩.

وقدمت الآيات الحديث عن مكرهم بالنبي ﷺ، ومحاولتهم التخلص منه بأي وسيلة ولو كانت القتل، وقد اجتمعوا لهذا الأمر في دار الندوة.

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما أجمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل وقال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأياً ونصحاً.

فدخل معهم، فتشاوروا، وقال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم، فانظروا في غيره.

وقال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فقال الشيخ النجدي: ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم، دبروا فيه رأياً غير هذا.

قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شاباً جليداً نسيباً، ثم نعطي كل فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه ويتفرق دمه في القبائل جميعاً، فقال النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له(١).

---

(١) سيرة ابن هشام باختصار ٢/٩١.

وأنزل الله تعالى بعد ذلك قوله: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ﴾: أي ليحبسوك ويوثقوك ﴿ أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ﴾ برد مكرهم عليهم وجعلهم خائبين خاسرين ﴿ والله خير الماكرين ﴾ [٣٠] لأنه يجازي الماكرين بمثل فعلهم، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاءً من مكرهم(١).

أو لأنه سبحانه لا يمكر إلا بحق وصواب، ومكرهم باطل وظلم، فمكر الخلق من الحيلة والعجز، ومكر الخالق من الحكمة والقدرة(٢).

عناد واستكبار

ثم تحدثت الآيات عن موقفهم عندما يسمعون القرآن الكريم وعن شدة إعراضهم عنه ومعاندتهم لآياته الساطعة وحججه البالغة ﴿ وإذا تليت عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ﴾ بآذاننا فقط، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾.

﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وهذا منهم قول بلا فعل، وإلا فقد تُحدوا أكثر من مرة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وقالوا معاندين ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [٣١]: أي ما هذا القرآن إلا ما سطره الأولون من الحكايات والأخبار، فما أشد عنادهم وما أعظم وقاحتهم!.

وأبلغ منه قولهم: ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾: أي إن كان القرآن الكريم هو الحق الثابت المنزل من عندك ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ تهلكنا بها ﴿ أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [٣٢] وبهذا القول بلغوا الغاية في الجحود والفساد والوقاحة والصلف والاستكبار، فبدل أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من

---

(١) فتح القدير ٢/٣٠٣.

(٢) تنوير الأذهان ٢/٢٠.

عندك فاهدنا إليه، قالوا ذلك معاندين مستكبرين، وهذا يدل على شدة حسدهم للنبي ﷺ وبغضهم له، فكأن الهلاك والعذاب أهون عليهم من متابعته عليه الصلاة والسلام والإيمان برسالته، فنار الحسد المتأججة في صدورهم جعلتهم يسألون لأنفسهم الهلاك بالحجارة أو العذاب الأليم.

ولله در القائل:

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك يقتله
النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

والقائل أيضاً:

لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله

الأمانان

ورد سبحانه عليهم فبين أنه قادر على إهلاكهم، ولكنه عزّ وجلّ أخر العذاب عنهم إكراماً للنبي ﷺ المقيم بينهم ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت ﴾ يا أكرم الخلق ﴿ فيهم ﴾ فإنه لعين تجازى ألف عين وتكرم(١).

وعدلت الآية عن توجيه الخطاب إليهم فوجهته إلى النبي ﷺ زيادة في بيان شرفه عليه الصلاة والسلام وفضله ومكانته عند ربه عزّ وجلّ، فإقامته عليه الصلاة والسلام بينهم بركة عليهم ورحمة من الله تعالى بهم، وكان عليه الصلاة والسلام يقيم في أقدس البلاد، في البلد الحرام الذي حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، ومع ذلك فإن حلوله عليه السلام في البلد الحرام زاده شرفاً وبركة وحرمة وتعظيماً، قال تعالى: ﴿ لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد ﴾(٢) فهو عليه الصلاة والسلام الرحمة المهداة من الله جلّ جلاله إلى العالمين ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر ٨/٢٧٢.

(٢) البلد: الآية ١، ٢.

(٣) الأنبياء: الآية ١٠٧.

وبعد أن بين سبحانه بركة وجوده عليه الصلاة والسلام على البلاد والعباد أتبعه ببيان ما يخلفه ﷺ بعد موته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى فقال: ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرونَ ﴾ [٣٣] أي لو استغفروا لم يعذبوا، فكأن المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم(١).

قال عليه الصلاة والسلام: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»(٢).

ولاة المسجد الحرام

وعندما أصر المشركون في مكة على الكفر وخرج النبي ﷺ من بينهم وهاجر إلى المدينة المنوّرة، عذبهم الله تعالى بتسليط النبي عليه السلام وأصحابه عليهم في بدر، فقتل من قتل منهم وأسر من أسر، وقال جلّ وعلا يبين سبب تعذيبه لهم ﴿ ومالهم ألا يعذبهم الله ﴾: أي كيف لا يعذبهم الله ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾: أي يمنعون المؤمنين الموحدين عن عبادة الله وحده في المسجد الحرام، ويقولون: نحن ولاة البيت الحرام نصد من نشاء وندخل من نشاء، ورد عليهم سبحانه بقوله: ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ فهم بسبب شركهم وكفرهم لا يصلحون لولاية المسجد الحرام الذي بني لعبادة الله وحده، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾(٣).

﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ من المسلمين الموحدين ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [٣٤] أنه لا ولاية لهم على المسجد الحرام.

---

(١) تفسير الرازي ١٥/١٦٣.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

(٣) الحج: الآية ٢٦.

ودلت الآية على أن بعضهم يعلمون هذه الحقيقة، ويجحدونها عناداً واستكباراً، قال تعالى: ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾(١).

ثم بين تعالى حقيقة عبادتهم التي كانوا يؤدونها عند المسجد الحرام فقال: ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾: أي صفيراً وتصفيقاً، والمكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله سبحانه أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية(٢)، ولهذا قال سبحانه لهم ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ الذي نزل بكم يوم بدر ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ [٣٥].

التمييز بين الخبيث والطيب

ومن جرائمهم أيضاً أنهم كانوا ينفقون الأموال الكثيرة للصد عن سبيل الله، قال ابن إسحاق: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، ففيهم أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾.

---

(١) التوبة: الآية ١٧، ١٨.

(٢) تفسير الخازن ٣٨/٣.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشراً من الإبل.

وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً(١).

وقد أخبر تعالى أنهم سينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله وأن ذلك لن ينفعهم ﴿ فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ﴾ ندماً وغماً، لأن أموالهم تذهب من غير حصول المقصود ﴿ثم يُغلبون ﴾ في آخر الأمر.

وفي الآية بشارة للنبي ﷺ والمسلمين بالنصر على المشركين والتمكين للإسلام في الأرض.

ثم بين سبحانه عاقبة المصرين على الكفر يوم القيامة فقال: ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ [٣٦] أي يساقون إليها لا إلى غيرها.

فبالجهاد يميز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ الفاسد من الصالح، قال تعالى: ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾(٢).

وفي يوم القيامة يظهر عدل الله سبحانه وفضله عندما يجعل أهل الإيمان والصلاح في الجنة بفضله ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ﴾ أي فيجمعهم ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا ويتزاحموا، ثم يطرحهم في جهنم ﴿ فيجعله في جهنم ﴾ بعدله سبحانه:

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١٠٣/٢.

(٢) آل عمران ١٧٩.

﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ [٣٧] الذين خسروا أموالهم وأنفسهم.

ولا يخفى ما في الآية من تحقير للكافرين واستهانة بهم، فرغم كثرتهم وكثرة أموالهم، فإن شأنهم شأن الأشياء القذرة الحقيرة التي تجمع إلى بعضها لترمى دفعة واحدة في جهنم.

الإسلام يجُبّ ما قبله

والدعوة الإسلامية مستمرة لا تتوقف، فهي في الحرب والسلم، وقبل القتال وبعده وفي أثنائه، وما شُرع الجهاد إلا لحماية الدعاة إلى الله تعالى وإزالة طواغيت الكفر، الذين يقفون في طريق الدعوة، ويمنعون انتشارها بين الشعوب والأمم، وها هي الآيات في سورة الأنفال تأمر النبي ﷺ أن يدعو المشركين بعد انتهاء القتال في بدر إلى الإسلام.

﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ عن الكفر بالدخول في الإسلام ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾: أي يغفر الله لهم كل ما مضى من كفرهم وفجورهم وعدوانهم، قال ﷺ: «الإسلام يجبّ ما كان قبله»(١) وله شاهد في صحيح مسلم أنه لما أتى عمرو بن العاص إلى النبي ﷺ مسلماً، بسط النبي عليه الصلاة والسلام يده ليبايعه، فقبض عمرو يده، فقال: «مالك يا عمرو؟» قال: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قال: أن يغفر لي. قال ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله»(٢).

فباب الدخول في الإسلام مفتوح دائماً، والدعوة الإسلامية مستمرة لا تتوقف، ودل الحديث على أن الله تعالى يغفر كل الذنوب للكافر المحارب للمسلمين إذا جاء مسلماً مستسلماً.

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم كتاب الإيمان رقم ١٢١.

وبعد أن رغبهم تعالى بالتوبة والتجاوز عن كل جرائمهم ومعاصيهم، هددهم سبحانه وتوعدهم إذا عادوا إلى العناد والفساد، فقال: ﴿ وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ [٣٨] في إهلاك أعدائه سبحانه ونصر أوليائه.

الاستمرار في الجهاد

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين تحضهم على الثبات في الجهاد والاستمرار فيه، فالطريق طويل والمعوقات كثيرة، والعقبات كبيرة، والجهاد ماضٍ ما دام للكفر في الأرض شوكة ومنعة ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾: أي قاتلوا الكفار حتى لا تبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، وهذا ما فهمه الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من الآية الكريمة، فمن المعلوم أنه اعتزل الخلاف الذي حدث بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه ولما جاءه رجل وقال له: إن الله تعالى يقول ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ قال رضي الله عنه: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة(١).

فهذا هو المراد من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة(٢).

﴿ ويكون الدين كله لله ﴾: أي ويكون الخضوع والاستسلام لأحكام الله تعالى، إما بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكم الإسلام والعيش بين المسلمين في ظل سماحة الإسلام وعدله.

فالله سبحانه لم يشرع الجهاد ويأمر بالقتال لإكراه الناس على

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره وهو في صحيح البخاري.

(٢) تفسير الرازي ١٥/١٦٩.

الدخول في الإسلام وهو سبحانه القائل ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[1]. ولا تقوم العقيدة بالإكراه، فالعقيدة لا تقوم إلا بالاقتناع والفهم.

وإنما شرع الجهاد لحماية الإسلام والمسلمين، ولتأمين نشره بين الناس، وإزالة العوائق التي تمنع انتشار الإسلام وتحول دون تبليغه للناس.

﴿ فإن انتهوا ﴾ عن قتالكم والصد عن سبيل الله، فكفوا عن قتالهم، فهو كقوله سبحانه الآتي: ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾.

﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ [٣٩] فيجازي كل إنسان بعمله.

﴿وإن تولوا ﴾: أي أعرضوا عن الإسلام وعن الخضوع لأحكامه ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ يتولى أموركم ويؤيدكم وينصركم إن أطعتموه وتمسكتم بسنّة نبيه عليه السلام، وهو سبحانه ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ [٤٠].

ففي الآية حض على الاستمرار في الجهاد والثبات عليه مع الثقة بنصر الله تعالى وتأييده.

الغنيمة والفيء

وعليكم أن تعلموا أيضاً كيفية قسمة الغنائم التي أحلها سبحانه لكم؛ كيلا يقع بينكم اختلاف حولها ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ من الغنائم، وهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالقوة والغلبة، بين الله تعالى في هذه الآية كيفية قسمتها، وأما الفيء، وهو ما يسر الله

---

[1] البقرة: الآية ٢٥٦.

للمسلمين من أموال الكافرين من غير قتال وقهر، كأموال بني النضير التي نزلوا عنها بسبب الخوف والرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوبهم، فقد بينه سبحانه في قوله: ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيءٍ قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾(١).

فالغنيمة تخمس، توزع أربعة أخماس منها على المجاهدين الغانمين، ويوزع الخمس الباقي منها على المصارف الخمسة المذكورة في آية سورة الحشر السابق ذكرها، وفي قوله تعالى هنا ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ وذِكْرُ الله تعالى في أول المصارف الخمسة للتعظيم، فسهم للرسول ﷺ في حياته، ويصرف بعده في مصالح المسلمين، أو يرد على المصارف الأربعة الأخرى، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا نورث ما تركناه صدقة»(٢).

وسهم لذي القربى، وهم قرابته ﷺ من بني هاشم وبني المطلب بسبب نصرتهم للنبي ﷺ، والأسهم الثلاثة الباقية تعطى لليتامى والمساكين وأبناء السبيل المنقطعين في الطريق، أي تعطى للضعفاء في المجتمع إقامة للتكافل والتعاون بين أبناء المجتمع المسلم، وقد يكون النصر الذي تحقق ببركة دعائهم، قال ﷺ: «ابغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»(٣) وفي صحيح البخاري: «هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم».

---

(١) الحشر: الآية ٦ ـ ٧.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

يـوم الفرقـان

﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ أي اعملوا بهذه القسمة وارضوا بها، إن كنتم آمنتم بالله تعالى: ﴿ وما أنزلنا على عبدنا ﴾ محمد ﷺ من الآيات والمبشرات والملائكة والنصر، وما أنزل الله تعالى كل ذلك في يوم بدر إلا تكريماً للنبي ﷺ، فهو المقصود بكل ما أنزل الله تعالى في هذا اليوم ولهذا أفرده تعالى بالذكر، ونسبه إلى ذاته المقدسة بصفة العبودية تشريفاً له عليه السلام وتكريماً.

﴿ يوم الفرقان ﴾ يوم معركة بدر الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ بإرادته سبحانه وتقديره دون موعد سابق بينهما ﴿ والله على كل شيءٍ قدير ﴾ [٤١].

ثم بين سبحانه كيف جمع بقدرته ومشيئته بين الفريقين لكي يقع الفرقان فقال: ﴿ إذ أنتم ﴾ نازلون ﴿ بالعدوة الدنيا ﴾ بشاطىء الوادي القريب من المدينة المنوّرة ﴿ وهم بالعدوة القصوى ﴾ والمشركون نازلون بشاطىء الوادي الآخر البعيد عن المدينة المنوّرة ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ والقافلة على الطريق السفلي القريب من ساحل البحر على بعد ثلاثة أميال منكم.

﴿ ولو تواعدتم ﴾ أنتم والمشركون على اللقاء في بدر ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ بسبب بعد المكان عن مكة وقربه من المدينة، وأيضاً بسبب قلة المسلمين وكثرة المشركين.

﴿ ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ ولكنه سبحانه بقدرته ومشيئته قدر ذلك وقضاه، حتى وصل الجمعان إلى بدر في يوم واحد ومن غير ميعاد سابق، ليقع ما أراد الله وقوعه في يوم الفرقان، فهو سبحانه الفعّال لما يريد، وقضاؤه كائن لا محالة، وقد قضى جلّ وعلا بإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله.

وبذلك قامت الحجة على المعاندين وظهرت ﴿ ليهلك من هلك

عن بينة ﴾ أي ليستمر في الكفر من استمر على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه ﴿ ويحيى من حي عن بينة ﴾ ويؤمن من آمن عن حجة وبصيرة، فالإيمان حياة القلوب كما مر في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾، وقال تعالى: ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾(١)، وإلى هذا المعنى ذهبت السيدة عائشة رضي الله عنها في قولها في حديث الإفك: فهلك فيّ من هلك.

وقد مر معنا أن يوم بدر كان حقاً فرقاناً بين الحق والباطل.

﴿ وإن الله لسميع ﴾ لأقوالكم ودعائكم ﴿ عليم ﴾ [٤٢] بأحوالكم وأحوالهم.

ثم كشفت الآيات الكريمة عن بعض التدبيرات الإلهية الخفية التي مهدت للقتال وما أعقبه من النصر ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ﴾ فقد رأى النبي ﷺ المشركين جمعاً قليلاً، بمشيئته تعالى وقدرته، وأخبر عليه الصلاة والسلام أصحابه بذلك، مما جرأهم على القتال وشجعهم عليه.

﴿ ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ﴾: أي لضعفتم وهبتم المشركين، وحدث بينكم اختلاف في أمر قتالهم.

وهذا يدل على أن إظهار القوة للعدو له تأثير على معنويات العدو وإحراز النصر.

﴿ ولكن الله سلم ﴾: أي ولكنه سبحانه بلطفه ورحمته سلمكم من

---

(١) الأنعام: الآية ١٢٢.

ذلك ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ [٤٣] عليم بكل ما يخفى في الصدور من شجاعة وجبن وجرأة وخوف.

وعندما وقف الجمعان أمام بعضهما في ساحة القتال، هيأ تعالى أيضاً الأسباب المعنوية التي تشجعهما على الاقتتال والالتحام، فهو سبحانه وتعالى خالق للأسباب والمسببات ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ لتتجرؤوا على قتالهم وتطمعوا في النصر عليهم، حتى قال عبد الله بن مسعود: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال: كنا ألفاً(١).

﴿ ويقللكم في أعينهم ﴾ حتى قال أبو جهل: إن أصحاب محمد أكلة جزور(٢).

وهكذا أغرى الله تعالى كلاً من الجمعين بالآخر ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾: أي كان مقدراً في الأزل، فلا بد من وقوعه كما تعلقت به إرادته جلّ وعلا.

وكرر في الآيتين إبرازاً لأهميته، فالتقدير بمشيئته سبحانه أزلاً وأبداً لا بمشيئة غيره، وكما بدأت الأمور بمشيئته تعالى تنتهي أيضاً بمشيئته سبحانه: ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [٤٤].

فالبداية والنهاية منه وإليه جلّ وعلا.

وتقليل المسلمين في أعين المشركين كان قبل القتال، ثم بعد أن بدأ القتال والتحم الجمعان قلل الله المشركين في أعين المؤمنين تثبيتاً

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/١١٠، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/١٩٤.

لهم ورفعاً لمعنوياتهم وكثر المؤمنين في أعين المشركين، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾(١).

فلا تعارض بين الآيات، فكل آية تصف حالة من حالات يوم بدر وطوراً من أطواره.

---

(١) آل عمران: الآية ١٣.

الفصل الثالث

التحذير من أسباب الهزيمة

التنازع والاختلاف

بعد أن بينت الآيات أسباب النصر المباشرة وغير المباشرة، اتجهت اتجاهاً جديداً يغلب عليه أسلوب التحذير من أسباب الهزيمة، واستهلت حديثها بتذكير المسلمين بواجبهم الأساسي الأول عند لقاء العدو في ميدان القتال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ لقتالهم، ولا تفروا، فالفرار كبيرة من كبائر الذنوب، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾.

ثم أمرتهم بالإكثار من ذكر الله تعالى في أثناء القتال ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [٤٥] ولا تغفلوا عنه سبحانه ولو في أشد الأحوال وأخطرها، فإن ذكر الله تعالى في مثل هذه الأحوال استمداد لمعونته وتأييده، واستنزال لنصره، ففي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني»(١).

ويؤيده قوله تعالى: ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾(٢) ويدل ذكره سبحانه في مثل هذه الأحوال العصيبة على شدة

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) البقرة: الآية ١٥٢.

محبته تعالى، ومر معنا عند قوله: ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ الآثار الطيبة للذكر وذِكْرُهُ سبحانه يستدعي طاعته ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ بالتزام ما شرعه سبحانه في الجهاد، وهذا الالتزام أهم أسباب النصر كما مر معنا في قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾.

ثم حذرت الآيات الكريمة المسلمين من أكبر أسباب الفشل والهزيمة بقوله تعالى: ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا ﴾ فإن الاختلاف يؤدي إلى الفشل والضعف ﴿ وتذهب ريحكم ﴾: أي تتلاشى قوتكم، وتضيع جهودكم، فعاقبة الاختلاف والتنازع مرة ووخيمة ﴿ واصبروا ﴾ على مكاره القتال وشدائده ومخاطره ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ [٤٦] يؤيدهم ويقويهم وينصرهم.

التحذير من التكبر والطغيان

ثم حذرتهم الآيات أيضاً من التشبه بأعدائهم في تكبرهم وطغيانهم وفخرهم وإعجابهم بأنفسهم واغترارهم بقوتهم، فإن ذلك من أسباب الفشل والهزيمة ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ﴾ وهم النفير جيش المشركين، وعلى رأسهم أبو جهل عمرو بن هشام، الذين خرجوا من مكة لحماية القافلة، كما مر معنا، ولما علموا بنجاة القافلة أصروا على الذهاب إلى بدر ﴿ بطراً ﴾ أي طغياناً وتكبراً وفخراً، فبدل أن يشكروا الله تعالى على نجاة أموالهم ويعودوا إلى مكة، توجهوا إلى بدر، وقال قائلهم ـ وهو أبو جهل ـ: والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليها ثلاثاً فننحر الجزر، ونطعم الطعام ونُسقى الخمر... كما مر معنا.

﴿ ورئاء الناس ﴾: أي ومن أجل أن يراهم الناس، فالقوم يريدون الافتخار بقوتهم وأموالهم أمام الناس، كأنهم يرون لأنفسهم فضلاً على الناس بما لديهم من قوة وأموال.

﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ وليمنعوا الناس عن الدخول في دين الله تعالى، ويعوقوا انتشاره بينهم.

﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ [٤٧] وفيه وعيد شديد لهم ولكل من يتشبه بهم، فهو سبحانه عليم بجميع أحوالهم وأعمالهم ونياتهم، وهم في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، ولهذا سقاهم في بدر كؤوس المنايا بدل الخمور، وأقام عليهم النوائح بدل القيان.

التحذير من وساوس الشيطان ومكره

ثم كشفت الآيات للمؤمنين على سبيل التحذير لهم دور الشيطان في توريط المشركين وتزيينه لهم القدوم إلى بدر، ثم كيف تخلى عنهم، وخذلهم عندما جد الجد، وبدأ القتال والصدام بين الفريقين، ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾: أي حبب إلى المشركين أعمالهم الفاسدة، كالتكبر والطغيان، وحب الرياء والسمعة، والصد عن سبيل الله تعالى ﴿ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾: أي ألقى في صدورهم وخيّل لهم أنهم لا يُغلبون، بسبب قوتهم وكثرة عددهم وعُدَدهم، وأوهمهم أنه مجير لهم، فالقول مجاز عن الوسوسة(١).

ويمكن أن يكون الشيطان قد قال ذلك لهم حقيقة، كما فعل عندما تآمروا على قتل النبي ﷺ قبل الهجرة، وقد مر معنا ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ الآية.

ويؤيد هذا المعنى قول ابن عباس رضي الله عنه: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وإني جار لكم(٢) ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ فلما التقوا

---

(١) انظر روح المعاني ١٥/٤.

(٢) انظر مختصر ابن كثير ١١١/٢.

ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ﴿ نكص على عقبيه ﴾ رجع مدبراً ﴿ وقال إني بريء منكم ﴾ وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه وانقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل، أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك(١) قال تعالى: ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾(٢).

﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾: أي إني أرى الملائكة التي لا ترونها. وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «ما رُئي الشيطان في يوم أقل ولا أحقر ولا أصغر منه في يوم عرفة؛ لما يرى من نزول الرحمة، إلا ما رأى يوم بدر» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «رأى الملائكة يَزَعها جبريل»(٣).

﴿ إني أخاف الله ﴾ وكذب عدو الله، والله ما به مخافة، ولكن علم ألا قوة له ولا منعة ﴿ والله شديد العقاب ﴾ [٤٨].

التحذير من المنافقين وإشاعاتهم الكاذبة

وللإشاعات الكاذبة، دور كبير في بث روح التخاذل والهزيمة في نفوس المقاتلين، وما أكثر ما أدت إلى تحويل الانتصارات إلى هزائم! ولهذا تحرص الدول قديماً وحديثاً على إذاعة الإشاعات الكاذبة في المجتمعات المعادية، وتسخر لبثها مختلف وسائل الإعلام، وتحشد لأجل ذلك كل ما لديها من إمكانيات، وترسم من أجلها الخطط والبرامج، حتى أطلقوا عليها في العصور المتأخرة: الحرب الباردة، أو حرب الدعايات.

وأكثر الإشاعات خطورة تلك التي تصدر من داخل المجتمع، من

---

(١) انظر مختصر ابن كثير ٢/١١١.

(٢) الحشر: الآية ١٦.

(٣) رواه مالك في الموطأ.

أولئك الذين يخفون في نفوسهم ولاءهم للعدو، وهم الذين يسمونهم في العصر الحاضر: الطابور الخامس، وقد سماهم الله تعالى: بالمنافقين، وحذر من مكرهم وكيدهم وافتراءاتهم وأكاذيبهم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى هنا: ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ وهو ما يخفون في قلوبهم من الكفر وموالاة أعداء المسلمين، قال تعالى: ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾(١).

﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾: أي غر المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى بدر دينهم، فهم نفر قليلون يقاتلون أضعافهم، فقد خدعهم دينهم، لأنه حملهم على تعريض أنفسهم لخطر لا قبل لهم به.

بمثل هذه الشائعات عمل المنافقون على توهين عزائم المؤمنين، وإضعاف معنوياتهم، وتخويفهم من قوة عدوهم.

وقد تكرر منهم مثل هذه الأقوال في أكثر المعارك والغزوات، ففي غزوة الأحزاب حكى الله تعالى عنهم قولهم: ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾(٢).

وبين سبحانه كيف نواجه إشاعات المنافقين وافتراءاتهم، وذلك بكتمانها وعدم إشاعتها بين الناس أولاً، ثم بتبليغها إلى أولياء الأمور في المجتمع ليبينوا حقيقتها ويكشفوا زيفها وخداعها.

فقال تعالى: ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾(٣).

وإن ثقة المؤمنين بنصر الله تعالى وتوكلهم عليه، يحميهم من التأثر

---

(١) البقرة: الآية ١٠.

(٢) الأحزاب: الآية ١٢.

(٣) النساء: الآية ٨٣.

بإشاعات المنافقين والمرجفين، ولهذا ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ [٤٩].

لقد استأجر أبو سفيان عندما كان زعيماً للمشركين، بعض الرجال لكي يندسوا بين صفوف المسلمين في المدينة المنوّرة، وينشروا فيهم الإشاعات الكاذبة، ففشلوا ولم يتأثر الصحابة رضي الله عنهم بافتراءاتهم بسبب قوة إيمانهم وتوكلهم على ربهم، وأنزل الله تعالى يثني عليهم ويشهد لهم بصدق الإيمان وحسن التوكل قوله الكريم: ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾(١).

في غمرات الموت

وأخذت الآيات بعد ذلك تتوعد المنافقين والكافرين بسوء العاقبة والمصير عند الموت وبعده، وقد اتبعت أسلوب التهديد غير المباشر، فوجهت الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح لتوجيه الخطاب إليه، فجاء هذا الأسلوب متناسباً ومنسجماً مع الأساليب الملتوية التي يسير عليها المنافقون ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ ﴾: أي لو رأيت الملائكة وهم يقبضون أرواح الكفار عند موتهم، لرأيت أمر عظيماً مخيفاً مرعباً ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾والملائكة يضربون الكفار على وجوههم وظهورهم، ويقولون لهم: ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ [٥٠]. فما تلقونه الآن قليل من كثير، ومقدمة لعذاب أشد ألماً وأعظم حسرة، وهو الاحتراق في نار جهنم، قال تعالى: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم

---

(١) آل عمران: الآية ٧٣ ـ ٧٤، انظر: التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران.

اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾⁽¹⁾.

﴿ ذلك ﴾ العذاب والهوان ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾: أي بسبب كفركم وفجوركم ومعاصيكم ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ [٥١] فلا يكون منه سبحانه ظلم، ولا ينسب إليه ظلم البتة، ولفظة ﴿ ظلام ﴾ ليست للمبالغة، إنما هي كبزاز وعطار وجزار⁽²⁾.

وتدل الآية على أن للإنسان كسباً واختياراً فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال، وهذا الكسب والاختيار مناط مسؤوليته أمام الله تعالى القائل: ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾⁽³⁾.

من تاريخ الطغاة والمكذبين

ثم ضرب الله تعالى مثلاً من تاريخ الطغاة والمكذبين تأكيداً لعدله وحكمته جلّ وعلا، فقال: ﴿ كدأب آل فرعون ﴾: أي عادة هؤلاء المعاندين من كفار قريش في مكة المكرمة، ومن المنافقين في المدينة المنوّرة، كعادة آل فرعون، وفرعون كان ولا يزال أقبح مثال للظلم والطغيان والتجبر والتكبر ﴿ والذين من قبلهم ﴾ من الأمم الكافرة والمكذبة.

﴿ كفروا بآيات الله ﴾ كما فعل المشركون والمنافقون ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾: أي فأهلكهم الله وعذبهم بسبب ذنوبهم، فلم يظلمهم سبحانه ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ [٥٢] لا يُغلب، ولا يدفع عقابه عمن أراد معاقبته.

---

(١) الأنعام: الآية ٩٣.

(٢) انظر تنوير الأذهان ٢ / ٣٠.

(٣) يونس: الآية ٤٤. انظر لتوضيح هذا المعنى في كتاب: الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.

أسباب زوال النِّعم

ثم بين سبحانه سنّة من سننه في خلقه جلّ وعلا، تدل على تمام عدله وكمال حكمته، فقال: ﴿ ذلك بأن الله لم يكُ مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فلا يزيل الله تعالى نعمة، أنعم بها على قوم من الأقوام حتى ينتقلوا من الحال التي كانوا عليها عند النعمة إلى حال أسوأ وأقبح مما كانوا عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من والٍ ﴾(١).

فأسباب زوال النعم ونزول العذاب والنقم، نابعة من سلوك الناس وأعمالهم، والله سبحانه ما خلقهم ليعذبهم، وإنما خلقهم ليرحمهم ويمن عليهم برحمته وإحسانه، ويسعدهم بطاعته وعبادته، قال تعالى: ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾(٢).

ومن كماله جلّ وعلا اتصافه بالرحمة والإحسان، وبالغضب والانتقام، ولكن رحمته سبحانه سبقت غضبه، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» وفي رواية: «سبقت رحمتي غضبي»(٣).

ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق وأكثر وصولاً إليهم(٤) ولهذا كانت قريش قبل الإسلام تنعم بالأمن والرخاء، ولما بعث الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، كذبوه وعاندوا دعوته، فغير الله تعالى حالهم، ونزع عنهم نعمة الأمن والرخاء، وسلط عليهم النبي ﷺ وأصحابه، فبارت تجارتهم، وفقدوا كثيراً من أموالهم

---

(١) الرعد: الآية ١١.

(٢) النساء: الآية ١٤٧.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) تفسير أبي السعود ٢/١١٥. وانظر: بصائر الحق في سورة الأنعام.

وأنفسهم، حتى فتح الله تعالى مكة المكرمة للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿ وأن الله سميع عليم ﴾ [٥٣] يسمع ويعلم جميع أقوالهم وأعمالهم.

تلك هي سنّته تعالى الجارية في خلقه، فالذي لا يعرف قدر النعمة ولا يشكر المنعم، تسلب النعمة منه وتنزع عنه، وشأن مشركي مكة فيما نزل بهم كشأن فرعون وقومه والأمم المكذبة قبلهم.

﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم ﴾ التي أيَّـدَ الله تعالى بها الرسل الذين أرسلوا إليهم ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾: أي بسبب ذنوبهم.

وبين سبحانه كيفية إهلاك فرعون وقومه على وجه الخصوص، لكثرة ما كانوا فيه من النعم، وشدة معاندتهم وتكبرهم ﴿ وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ [٥٤]: أي وكل من المكذبين السابقين كفرعون وقومه، ومن المكذبين اللاحقين كمشركي قريش، كانوا ظالمين لأنفسهم، بسبب إعراضهم وعنادهم وتكذيبهم.

ولا يخفى أن تكرير ذكر فرعون وقومه لمعنى آخر لم يكن في الأول، إذ الأول لبيان أنه تعالى أهلكهم لما كفروا، والثاني لبيان أنه تعالى لم ينزع نعمته عنهم ويغير حالهم، حتى غيروا ما بأنفسهم وكذبوا أنبياءهم.

التحذير من الغدر ونقض العهد

الإسلام دين السلم والسلام، أنزله الله تعالى لرعاية مصالح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة، والجهاد في الإسلام ليس غاية في حد ذاته، إنما هو وسيلة لعزة المسلمين وأمنهم وتأمين انتشار دعوتهم، ولهذا شرع الله تعالى إلى جانب شريعة الجهاد والقتال قيام العهود والمواثيق بين المجتمع الإسلامي وبين المجتمعات البشرية الأخرى، وأعطى ولي

أمر المسلمين الحق الشرعي في عقد المعاهدات والمواثيق الدولية، إذا ما رأى فيها مصلحة للمسلمين.

وأمر سبحانه برعاية هذه المعاهدات والوفاء بها، ما دامت الأطراف الثانية ترعاها وتحفظها، كما حذر سبحانه في الوقت نفسه المسلمين من الغفلة عن عدوهم، والاعتماد على عهودهم ومواثيقهم معه.

فالكفر لا يأتي بخير أبداً، والكفار أكثر الخلق شراً وضراً، قرر سبحانه هذا المعنى محذراً من غدرهم وشرهم فقال: ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ [٥٥] فما داموا مصرين على الكفر بعيدين عن الإيمان، فهم شر من يدب على الأرض، فالكفر أصل كل شر، والإيمان أصل كل خير.

﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾ [٥٦] أي الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، لأنهم لا يتقون الله تعالى ولا يخشونه، فهم كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾⁽¹⁾.

ثم بين سبحانه كيفية التعامل معهم في حال نقضهم العهد، فقال:

﴿ فإما تثقفنهم في الحرب ﴾ أي فإذا ما ظفرت بهم في ميدان القتال وتمكنت منهم ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ فاغلظ عليهم في القتال وشدد عليهم، واضربهم ضربة تؤدب بها غيرهم ممن يريدون نقض العهد والغدر. ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ [٥٧] لعل ذلك يكون موعظة لهم يتعظون بها، وينزجرون عن نقض العهد والغدر.

---

(١) التوبة: الآية ١٠.

الخدعة في الحرب لا في العهد

هكذا ينبغي أن يُعامل الناقضون للعهد، وأما الذين يريدون الغدر ونقض العهد، فالأمر معهم يختلف ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ﴾: أي غدراً ونقضاً للعهد، بعلامات وأمارات تلوح منهم.

وهذا يدل على وجوب الحذر منهم ومراقبة تحركاتهم، وعلى ولي أمر المسلمين أن يرصد المجتمعات الكافرة، وأن يقف على كل أحوالهم، ولو كان مرتبطاً معهم بعهود ومواثيق، لكي لا يفاجأ بغدرهم ومكرهم.

﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ أي أعلمهم أنك نقضت العهد الذي بينك وبينهم، فالإسلام يحرم الغدر لأنه دين الصدق والوفاء، والمسلمون مكلفون بتعاليم الإسلام وأخلاقه ومُثُله في السلم والحرب، ومع الصديق والعدو، وهذه الحقيقة هي التي تجذب الناس إلى الدخول في الإسلام وترغبهم فيه.

﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ [٥٨] الناقضين للعهد والغادرين، مهما كانوا ولو كانوا من المسلمين.

ذكر ابن كثير في تفسيره أن معاوية رضي الله عنه كان يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء ولا غدر، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلن عقدة ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة رضي الله عنه(١).

وقد يقول قائل: ألم يقل النبي ﷺ «الحرب خدعة»(٢) والانتصار على العدو يقتضي الاحتيال عليه؟.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي، وقال: حسن صحيح.

(٢) صحيح مسلم.

وأقول: مخادعة العدو والاحتيال عليه تتعارض مع معاهدته ومهادنته، والخدعة في الحرب كما قال ﷺ لا في العهد، فما دام العهد قائماً فالواجب الوفاء به.

إن الإسلام يعاهدليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره، نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان، وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة، إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم، فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعه... وكل وسائل الخدعة حينئذٍ مباحة لأنها ليست غادرة.

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع، ويريد للبشرية أن تعف، فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة⁽¹⁾.

ولا يعني إعلام العدو بنقض العهد ونبذه عدم الحرص على مفاجأته بالهجوم فهذا أمر وذاك أمر آخر، فمفاجأة العدو بالهجوم، وإنزال الضربة الأولى به أمر مشروع في الإسلام، سنّه ﷺ، وكان حريصاً على تحقيقه في أكثر غزواته، فكان إذا أراد غزوة أخفى الجهة التي يقصدها، وإذا ما سئل عنها ورّى بغيرها⁽²⁾ لكي يفاجىء العدو، ويغزوهم وهم غارّون غافلون.

فقد ذكر الإمام النووي فى تبويبه لصحيح مسلم فى أول كتاب الجهاد فقال:

---

(1) في ظلال القرآن ٣/١٥٤٢.

(2) أوهم أنه يريد غيرها.

باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة.

ثم ذكر مسلم حديث ابن عمر رضي الله عنه: «قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارّون» ـ: أي غافلون ـ (١).

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها» الحديث(٢).

وإن الله تعالى لبالمرصاد لكل من يحاولون استغلال هذا المبدأ الإسلامي الرفيع، ويحاولون المكر والخديعة، ولهذا قال تعالى يتوعدهم ويتهددهم ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾: أي فاتونا ونجوا منا، فلا نقدر عليهم ﴿ إنهم لا يعجزون ﴾ [٥٩] إنهم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، فمهما حاولوا الإفلات بالهرب والفرار منهم في قبضة قدرته سبحانه، وهو قادر على أن ينزل بهم عذابه في أي مكان وزمان، فهو كقوله تعالى: ﴿ أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾(٣).

إعداد قوة الرمي والهجوم

التفتت الآيات بعد ذلك إلى المؤمنين تأمرهم بإعداد كل ما يستطيعون إعداده من أسباب القوة، القوة التي تجعل عدوهم يهابهم ويخشى جانبهم، ويحافظ على عهوده ومواثيقه معهم، قال تعالى:

---

(١) ونص الحديث في صحيح مسلم: عن ابن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال؟ قال: فكتب إلي: إنما كان ذلك في أول الإسلام. قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون. . .، إلى أن قال: وحدثني هذا الحديث عبد الله بن عمر، وكان في ذلك الجيش.

وقد شنَّع أحد الكتاب المعاصرين على نافع وخطأه لأنه رأى نافعاً قصر أمر الدعوة قبل القتال على أول الإسلام، مع أن نافعاً ما قصد إلى هذا المعنى، ما قصد إلا بيان جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة.

(٢) متفق عليه.

(٣) العنكبوت: الآية ٤.

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وبين ﷺ أن القوة التي تأمر الآية بإعدادها، هي القوة العسكرية التي يمكن أن يوجه بها أقصى الضربات للعدو، والتي تنزل به أفدح الخسائر، ففي الحديث الشريف عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»(١).

فقوة الجيش المادية في قوة رماياته التي يرمي بها العدو، في قوة نباله ونيرانه وقذائفه وصواريخه، في قوة الطاقة المدمرة التي يستطيع توجيهها إلى عدوه.

وتدل الآية على أنه يجب على المسلمين أن يحصلوا كل أسباب القوة وخاصة قوة الرمي في أثناء القتال.

وقوة الرمي وحدها لا تكفي لإحراز النصر، لا بد بعد رمي العدو وتدميره من استثمار ذلك، بالمبادرة إلى احتلال مواقعه واستئصال ما تبقى من قوته، والقضاء على مقاومته، وذلك بشن الهجوم عليه.

وهذا يتطلب إعداد القوة المهاجمة، قوة الهجوم والانقضاض على العدو لاحتلال مواقعه وأرضه، ولما كانت الخيل أسرع وسائل الهجوم والكر والفر في ميادين القتال، خصها سبحانه بالذكر في آية إعداد القوة، فقال: ﴿ ومن رباط الخيل ﴾: أي وأعدوا ما تستطيعون من الخيل المربوطة المجهزة للهجوم والانقضاض على العدو بعد إثخانه وتدميره بقوة الرمي.

فكأن الآية الكريمة ترسم مبدءاً عسكرياً هاماً مقرراً عند كبار القادة العسكريين، وهو: إضعاف العدو بقوة الرمي أولاً، ثم الهجوم عليه ثانياً للقضاء عليه.

وقد حث النبي ﷺ على إعداد الخيل والفروسية للجهاد عليها في

---

(١) صحيح مسلم.

سبيل الله في أحاديث كثيرة، منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الخيل ثلاثة، فهي لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجلٍ وزر، فأما التي هي أجر، فالرجل يتخذها في سبيل الله ويُعدِّها له، فلا تُغَيِّبُ شيئاً في بطونها إلا كتب الله له أجراً، ولو رعاها في مرج، ما أكلت من شيء إلا كتب الله له بها أجراً، ولو سقاها من نهر، كان له بكل قطرة تغيبها في بطونها أجر -حتى ذكر الأجر في أبوالها وأرواثها-، ولو استنت شرفاً أو شرفين[1] كُتب له بكل خطوة تخطوها أجر، وأما الذي هي له سِتر، فالرجل يتخذها تكرُّماً وتجمُّلاً، ولا ينسى حق ظهورها وبطونها في عسرها ويسرها، وأما الذي عليه وزر، فالذي يتخذها أشراً وبطراً وبَذَخاً ورياءَ الناس فذاك الذي عليه وزر»[2].

كما كان ﷺ يحث أصحابه على إتقان الرماية والفروسية والتدرب عليهما ويشترك معهم في ذلك، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على نَفَر من أسلم ينتضلون[3] بالسوق، فقال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان» فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال: «مالكم لا ترمون؟» فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم»[4].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: أجرى رسول الله ﷺ ما ضُمِّر من الخيل من الحفياء إلى ثنية الوداع، وما لم يُضمَّر من الثنيَّة إلى مسجد بني زُريق[5].

وقد عودنا سبحانه في كتابه أن يخاطب الناس بما يعقلون في عصر

---

[1] أي قطعت مرتفعاً أو مرتفعين من الأرض.

[2] رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

[3] يتدربون على إصابة الهدف.

[4] صحيح البخاري.

[5] متفق عليه. واللفظ للبخاري من كتاب الجهاد رقم ٢٨٦٨.

التنزيل، ولهذا لم يذكر سبحانه وسائل القتال والهجوم الحديثة التي اهتدى الإنسان إليها كالدبابات والطائرات والمدمرات وغيرها.

فقد جاء ذكر الخيل مثالاً لإعداد كل ما يمكن أن يكون سبب قوة ووسيلة نصر، ولقد أصبحت الناقلات الحديثة للجنود في الجو والبحر والبر من أهم أسباب النصر في العصر الحاضر، ويجب على المسلمين أن يعدوها بأيديهم، وألا يكونوا عالة بها على غيرهم، فإن قوله تعالى: ﴿ وأعدوا ﴾ يدل على ذلك، وقد أثبتت شواهد العصر الحاضر أن الأمة التي تصنع سلاحها بأيديها هي الأمة القوية العزيزة.

ويتطلب إعداد القوة علماً وعملاً ودراية وخبرة، ويجب على المسلمين أن يكونوا سباقين في كل هذه الميادين، وإلا كانوا جميعاً آثمين لتقصيرهم في ما أوجب سبحانه عليهم في هذه الآية.

القوة الاقتصادية

ثم بين تعالى ما يترتب على إعداد القوة من عزة ومنعة، ورهبة العدو وخوفه واحترامه للعهود والمواثيق، فقال: ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ ولا شك أن عدو الله هو عدو المسلمين، وكذلك عدو المسلمين عدو الله تعالى.

فالمسلمون يوالون أولياء الله تعالى ويعادون أعداءه، وكرر صفة العداوة لله والمسلمين تقبيحاً لحال الكفار وبياناً لشدة عنادهم وإعراضهم، وهم المشركون في مكة ومن وقف بجانبهم من قبائل العرب.

﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ﴾: أي وترهبون أعداءً آخرين لا تعلمونهم، إما لكونهم يخفون عداوتهم لكم كالمنافقين أو لكونهم بعيدين عنكم، وبهذا المعنى تنسحب الآية على جميع الكفار في شتى بقاع الأرض.

وقوله سبحانه: ﴿ لا تعلمونهم ﴾ بسبب كثرتهم وبعدهم يؤكد المعنى الثاني.

﴿ الله يعلمهم ﴾ ويعلم بغضهم للإسلام والمسلمين وكيدهم بهم.

ويتطلب إعداد القوة العسكرية في العصر الحاضر قوة اقتصادية يمكنها أن تتحمل النفقات الباهظة لإعداد الأسلحة الكثيرة المعقدة، وتدريب الجنود على استعمالها، وهذا واجب آخر يقتضيه الإعداد، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهو ما دل عليه أيضاً قوله تعالى في آية الإعداد: ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم ﴾: أي تثابون عليه ثواباً كاملاً ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ [٦٠]: أي لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً.

الإسلام والسلام

وإعداد القوة لا يعني بالضرورة مباشرة القتال والحرب، فالإسلام دين السلام، والجهاد في الإسلام وسيلة لعزة الإسلام والمسلمين وتأمين نشر الدعوة بين الناس، ولهذا شرع تعالى جواز مهادنة الكفار ومسالمتهم بعد أن أمر بإعداد القوة، فقال: ﴿ وإن جنحوا للسلم ﴾: أي مالوا للمصالحة والمسالمة ﴿ فاجنح لها ﴾ فمل إليها، أي إلى المهادنة والمسالمة ﴿ وتوكل على الله ﴾ ولا تخف من مكرهم وكيدهم، فإن الله تعالى كافيك كيدهم وعاصمك من مكرهم.

وينبغي أن يكون هذا حال المسلمين في كل الشؤون، يعدون ويستعدون ويهيئون كل الأسباب المادية، وفي الوقت نفسه يعتمدون على الله، وتبقى قلوبهم وأرواحهم موصولة به ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ [٦١].

ودل توجيه الخطاب للنبي ﷺ على أنه يجوز لولي أمر المسلمين أن يصالح الأعداء ويسالمهم إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين، قال

القرطبي رحمه الله: وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لنفع يجتلبونه أو ضرر يدفعونه، فلا بأس أن يبتدىء المسلمون به إذا احتاجوا إليه(١).

وقد صالح النبي عليه الصلاة والسلام قريشاً صلح الحديبية، وكان فيه مصلحة كبيرة للإسلام والمسلمين، حتى سماه الله تعالى فتحاً بقوله الكريم: ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾(٢).

فأمر الصلح والحرب منوط برأي ولي أمر المسلمين، وليس بحتم أن يقاتل الكفار أبداً، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً(٣).

الوحدة بعد الفرقة

وتثور عند المصالحات وتوقيع المعاهدات الهواجس والظنون ومشاعر القلق والحيرة والتردد، ولا سبيل إلى الخلاص من كل ذلك إلا بالثقة بالله تعالى والتوكل عليه، ولهذا توجهت الآيات إلى النبي ﷺ تقوي ثقته بالله تعالى وتشد من عزيمته بقوله جلّ وعلا: ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾: أي إن كانوا يريدون بالصلح خديعة ومكراً فإن الله تعالى كافيك مكرهم وكيدهم، وكما أيدك ونصرك عليهم في الحرب فإنه سبحانه يعصمك من كيدهم ومكرهم في السلم.

﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ [٦٢] من المهاجرين والأنصار ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ مع ما كان فيها من عصبيات وضغائن وأحقاد، حتى أصبحوا كنفس واحدة وجسد واحد، كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٤).

---

(١) تفسير القرطبي ٨/٤٠.

(٢) الفتح: الآية ١.

(٣) انظر: روح المعاني ٤/٢٧.

(٤) رواه مسلم.

فوحدة الأمة وإلفتها تدفع عنها مكر أعدائها وكيدهم، وتجعلها في مأمن من جميع مؤامراتهم ودسائسهم، وما نجح أعداء الإسلام في تآمرهم على المسلمين وكيدهم بهم، إلا بسبب تفرق المسلمين وتخاذلهم وتدابرهم، وما أكثر الشواهد المؤيدة لهذه الحقائق في تاريخ المسلمين وحاضرهم.

وإن من أجلِّ النعم التي أنعم الله بها على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، تآلفهم وتضامنهم بسبب إخلاصهم، وببركة محبتهم وطاعتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، فما كان أحد يتصور أن يجتمعوا حول رسول الله ﷺ هذا الاجتماع القوي الوثيق بعد طول التشتت وكثرة التمزق والتشرذم، حتى قال سبحانه يبين نعمته الجليلة عليهم في تأليفهم وجمعهم: ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ وهذه شهادة من الله تعالى أن إلفتهم ووحدتهم لم تقم على المنافع المادية، فالصحابة رضي الله عنهم الذين كونوا نواة الأمة المسلمة لم يجتمعوا على المنافع المادية، وإن أموال الأرض كلها لتعجز عن جمعهم والتأليف بين قلوبهم.

ولقد حرص النبي ﷺ منذ البداية على تنزيه دعوته عن أي غرض مادي دنيوي؛ لأن الأغراض الدنيوية من أموال ومناصب تفرق ولا تجمع، وتمزق ولا توحد، ولما بايع الأنصار النبي ﷺ بيعة العقبة التي كانت اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة»(١) فلم يعدهم عليه الصلاة والسلام بأي منفعة دنيوية في مقابل دخولهم في الإسلام وجهادهم في سبيله.

فالإيمان بالله تعالى والاعتصام بدينه وشرعه هو الذي يوحد ويؤلف

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٧.

﴿ ولكن الله ألف بينهم ﴾ بقدرته ومشيئته سبحانه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾(١).

فالقلوب التي يؤلّف بينها ربها لا يفرقها شيء ﴿ إنه عزيز ﴾ لا يغلب ولا يخيب رجاء من توكل عليه ﴿ حكيم ﴾ [٦٣].

القوة بعد الضعف

لقد جعلتهم هذه الإلفة في ظل شريعة الله تعالى أمة قوية تتحدى أعتى الأمم وأقواها، وتتغلب على أشد الصعاب، وتقتحم أكبر الأخطار، مع ما كانوا عليه من قلة في العَدد والعُدد، حتى قال الله تعالى فيهم: ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ [٦٤]: أي يكفيك الله، ويكفيك من اتبعك من المؤمنين، ولا شك أنه سبحانه هو وحده الكافي، كما سبق في قوله تعالى: ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ فالفضل لله تعالى وحده، والكفاية من الله تعالى وحده أيضاً، ولكنه سبحانه أراد أن ينوه بفضل الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار، وأن يبين أنهم أصبحوا بعد أن ألف بين قلوبهم أمة قوية يعتمد عليها بعد الله تعالى، أمة جديرة أن تحمل أمانة الله ورسالته إلى جميع أمم الأرض وشعوبها، وتتحمل في سبيل هذا الهدف كل المخاطر والصعاب.

ويمكن أن يكون معنى الآية: الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين بتثبيتهم وتقويتهم؛ ولهذا أمر الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام أن يشجعهم على الجهاد ومواجهة الأخطار مهما كانت ﴿ يا أيها

---

(١) آل عمران: الآية ١٠٣.

النبي حرض المؤمنين على القتال﴾: أي شجعهم وحثهم على القتال، وكان ﷺ يحرضهم على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما فعل يوم بدر حيث قال لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخٍ بخٍ(١)، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قَرَنه(٢)، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل(٣).

ثم بين سبحانه قوة المؤمنين بعد أن ألف بين قلوبهم فقال: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [٦٥]: أي بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة الحياة الدنيا، وأن وراءها حياة ثانية خالدة، فحرصهم على الحياة الدنيا يحملهم على الفرار من أرض المعركة.

والآية وإن جاءت بصيغة الإخبار إلا أن المراد منها الأمر والتكليف، فكأنه سبحانه يقول: إن يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا مائتين(٤).

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا مكلفين بالثبات في وجه عدوهم ولو كانت قوته تبلغ عشرة أضعاف قوتهم.

ولما كانت شريعة الإسلام شريعة رحمة ويسر لا حرج فيها ولا

---

(١) كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

(٢) جعبته.

(٣) رواه مسلم.

(٤) انظر: التفسير الكبير ١٥/١٩٨.

مشقة، خفف الله تعالى عنهم بقوله الكريم: ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾ في العَدد والعُدد، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم في جميع المعارك التي خاضوها أقل عدداً وعُدداً من عدوهم، ومع ذلك نصرهم الله سبحانه وأيدهم ومكن لهم في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ فالصبر سبب النصر سواء كانت قوة العدو أضعافاً كثيرة من قوة المسلمين أو كانت ضِعفاً واحداً فقط، ولهذا ذكره تعالى قبل التخفيف وبعده.

﴿ وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾: أي بمشيئته وقدرته، فالنصر من الله تعالى في جميع الأحوال، كما مر في قوله: ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾.

﴿ والله مع الصابرين ﴾ [٦٦] يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم.

والتخفيف في الحكم لم يمنع الصحابة رضي الله عنهم من الثبات في وجه عدوهم في واقع الأمر، ولو كانت قوته تزيد على عشرة أضعاف قوتهم، كما في غزوة مؤتة ومعركة اليرموك ومعركة القادسية وغيرها من معارك الفتح المظفرة.

التحذير من الانشغال بالأسرى

ثم حذرت الآيات الكريمة المؤمنين من الانشغال بأسر جنود العدو في أثناء القتال، فإن ذلك يؤدي إلى صرف جزء من قوة المسلمين لجمع الأسرى وحراستهم في وقت يحتاجون فيه إلى توجيه كل قوتهم لضرب العدو وإضعافه وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه.

وقد حدث يوم بدر أن الصحابة رضي الله عنهم بادروا إلى أسر المشركين قبل انتهاء القتال، وكان عليه الصلاة والسلام في العريش، وسعد بن معاذ رضي الله عنه قائم على بابه في نفر من الأنصار يحرسون

الرسول ﷺ، وكره سعد الأسر، وظهرت آثار الكراهة على وجهه، فقال له ﷺ: «لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم» قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إليّ من استبقاء الرجال(١).

واستشار ﷺ بعد ذلك أصحابه في الأسرى فقال: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان - نسيباً لعمر - فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوِ ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾(٢)، : أي حتى يبالغ في قتل جنود العدو فيؤدي ذلك إلى ضعف قوة الكفر ورجحان قوة الإسلام في الأرض، ولهذا لما قوي المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عليهم قوله الكريم: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها﴾ الآية(٣).

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٩٧.

(٢) رواه مسلم.

(٣) محمد: الآية ٤.

وهذا مبدأ عسكري هام شرعه الله تعالى، وهو لا يمنع من المبادرة إلى أسر عدد قليل من جنود العدو إذا احتاج المسلمون إليهم ليعرفوا منهم قوة عدوهم ونقاط الضعف في صفوفه، فللضرورة في الشريعة أحكامها وتقدر بقدرها، واستجواب الأسير للاستعلام منه عن أحوال العدو أمر جائز ومشروع، فعله الصحابة يوم بدر قبل بدء القتال، فعندما نزل الصحابة بدراً، ووردت عليهم روايا قريش(١)، وفيهم غلام أسود لبني الحجاج، فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: ما لي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف، فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم أنا أخبركم، هذا أبو سفيان... ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف(٢)، قال: «والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم»(٣).

وتابعت الآية مخاطبة الصحابة رضي الله عنهم ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾: أي تريدون حطام الدنيا العارض الزائل بأخذكم الفدية من الأسرى، والله سبحانه يريد لكم ثواب الآخرة ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ [٦٧] يشرع لكل حال ما يناسبها ويصلح لها.

﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطىء في اجتهاده، أو ألا يعذب أهل بدر ﴿ لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [٦٨]: أي لنالكم وأصابكم بسبب ما أخذتم من الفدية عذاب عظيم.

﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنيمة ﴿ حلالاً

---

(١) الإبل التي يستقون عليها الماء. (٢) أي سلم من صلاته.

(٣) رواه مسلم. في كتاب الجهاد رقم ١٧٧٩ وقوله: (لتضربوه... وتتركوه) هكذا وقع في النسخ بغير نون، وهي لغة سبق بيانها مرات. انظر هامش صحيح مسلم ١٤٠٤/٣ تعليق محمد فؤاد عبد الباقي.

طيباً ﴾ لا عتاب فيه ولا عقاب، لأنه حلال لكم بشرع الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله تعالى لنا الغنائم لما رأى من عجزنا وضعفنا فأحلها لنا»(١) قال ﷺ ذلك تواضعاً، فإن إحلال الغنائم لهذه الأمة تكرمة للنبي ﷺ، فهو من الخصائص التي خصه جلّ وعلا بها كما مر معنا في قوله: «أعطيت خمساً...».

﴿ واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [٦٩].

وتتضمن هذه الآيات معاتبة للصحابة رضي الله عنهم، ولهذا وجهت الخطاب إليهم ولم توجهه إلى النبي ﷺ لأنه لم يأمر بأخذ الأسرى وما أراد عليه الصلاة والسلام قط عرض الدنيا.

فداء ووفاء

وبأسلوب رفيع يظهر سمو الدعوة الإسلامية وأخلاقها الكريمة وإنسانيتها الرفيعة، توجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ تأمره أن يدعو الأسرى إلى الإيمان بالله تعالى والدخول في الإسلام، فالدعوة إلى الله تعالى لا ينبغي أن تتوقف في جميع الأحوال كما مر معنا.

﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً ﴾: أي نية طيبة صالحة وعزماً على الإيمان والإسلام ﴿ يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ من المال الذي فدوا به أنفسهم.

فبعد أن استشار النبي ﷺ أصحابه في شأن الأسرى كما مر، قال لهم: «أنتم عالة، فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق»(٢).

وأصر عليه الصلاة والسلام أن يأخذ الفدية من جميع الأسرى، حتى من عمه العباس وزوج ابنته السيدة زينب أبي العاص بن الربيع،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

فعن أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، فقال: «لا تدعون منه درهماً»⁽¹⁾.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء زوجها أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة رضي الله عنها أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، ثم قال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها» فقالوا: نعم، وكان ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه⁽²⁾.

وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها، وقبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بأموال لرجال من قريش، فلما أقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه وأعجزهم هارباً حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها فأجارته وصرخت من صُفَّة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة قال: «أيها الناس هل سمعتم ما سمعت، والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت، إنه يجير على المسلمين أدناهم» ثم دخل ﷺ على ابنته فقال: «أي بُنيَّة، أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له» وأرسل ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به» فردوه عليه، فاحتمله إلى مكة فأداه إلى أصحابه ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال؟ قالوا: لا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود.

فجزاك الله خيراً، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ثم خرج إلى المدينة مهاجراً، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول(١).

﴿ ويغفر لكم ﴾ ما سلف من أعمالكم ومعاصيكم، فالإسلام يجب ما قبله كما مر معنا ﴿ والله غفور رحيم ﴾ [٧٠].

وبعد أن أطمعتهم الآيات بالإيمان ورغبتهم بالإسلام حذرتهم من الخداع والخيانة بقوله تعالى: ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل ﴾: أي من قبل بدر بالكفر والصد عن سبيل الله ﴿ فأمكن منهم ﴾ بأسرهم يوم بدر ﴿ والله عليم حكيم ﴾ [٧١].

التحذير من موالاة الكافرين

وجاءت الآيات الأخيرة في سورة الأنفال تحذر المسلمين من موالاة الكافرين، وتبين ما يترتب على ذلك من شر مستطير وفساد كبير، ولما كانت الهجرة إلى المدينة المنوّرة قبل فتح مكة المكرمة واجبة على المسلمين، قسمت الآيات الكريمة المسلمين إلى ثلاثة أقسام: المهاجرين، الأنصار، المسلمين الذين لم يهاجروا، وبينت على ضوء ذلك حكم الموالاة والنصرة بينهم بقوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ وهم المهاجرون ﴿ والذين آووا ونصروا ﴾ وهم الأنصار، آووا إخوانهم المهاجرين ونصروا الله ورسوله ﷺ فجاهدوا بأنفسهم وأموالهم، ﴿ أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ بينهم موالاة كاملة ونصرة تامة وتكافل وتضامن، حتى كانوا في أول الأمر يتوارثون فيما بينهم دون أقاربهم وذوي أرحامهم، بسبب الأخوة التي عقدها ﷺ بينهم بعد الهجرة، فقد آخى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قائلاً: «تآخوا في الله أخوين أخوين»(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢١٩ باختصار. (٢) سيرة ابن هشام ٢/١٠٩.

ثم بينت الآيات حكم موالاة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنوّرة بقوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من وَلايَتِهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ وهذا لا يعني ترك نصرتهم ومساعدتهم، بل يجب على المسلمين أن يقوموا بنصرتهم ومساعدتهم عندما يطلبون ذلك ﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾: أي إن طلبوا نصرتكم ومساعدتكم في أمر من أمور الدين فيجب عليكم أن تنصروهم، ﴿ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾: أي إلا إذا استنصروكم على قوم من الكفار، بينكم وبينهم عهد وميثاق، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا عهدكم، فالإسلام دين الوفاء، والالتزام بالوفاء بالعهد يقدم على الالتزام بنصرة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنوّرة.

وهذا إذا كان هؤلاء المسلمين يستطيعون الهجرة، أما إذا كانوا لا يستطيعون الهجرة بسبب ضعفهم وعدم تمكنهم منها، فالواجب نصرتهم واستنقاذهم في جميع الأحوال، قال القرطبي رحمه الله: إلا أن يكونوا مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة حتى لا تبقى منا عين تطرف، حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم، كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو، وبأيديهم خزائن الأموال وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد(١).

وقد بين الله تعالى وجوب نصرة المستضعفين من المسلمين في قوله الكريم: ﴿ ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾(٢).

---

(١) تفسير القرطبي ٥٧/٨.

(٢) النساء: الآية ٧٥.

ثم ختم الله الآية بما يفيد تهديد ووعيد المتقاعسين عن نصرة إخوانهم فقال: ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ [٧٢].

فتنة وفساد

ثم ذكر سبحانه المؤمنين بما يوجد بين الكفار من تعاضد وتناصر وخاصة عندما يواجهون المسلمين فقال: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾: أي ينصر بعضهم بعضاً عليكم رغم تعدد نحلهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة، فالكفر ملة واحدة باطلة في مواجهة الإيمان، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾(١)، وما أكثر الشواهد الدالة على ذلك في الماضي والحاضر.

﴿ إلا تفعلوه ﴾: أي إذا لم تقيموا هذه الموالاة والمناصرة فيما بينكم ﴿ تكن فتنة في الأرض ﴾ تحدث فتنة في الأرض بسبب رجحان كفة الكفر بتعاونهم وتناصرهم، وبسبب تخاذلكم وتفرقكم، مما يؤدي إلى أن يُفتن كثير من المسلمين عن دينهم.

﴿ وفساد كبير ﴾ [٧٣]: أي ويقع في الأرض فساد كبير بسبب ابتعاد الناس عن دين الله وشريعته، فاعرفوا أيها المسلمون حقيقة رسالتكم وجوهر مهمتكم التي كلفتم بها، وسيسألكم الله عنها، إن صلاح العالم في جنبات الأرض منوط بكم ومتوقف على تعاونكم وتعاضدكم في حمل رسالة دينكم وشريعة ربكم وسنّة نبيكم ﷺ.

فضيلة السابقين

ثم توج الله تعالى خاتمة السورة بهذا الثناء الطيب العطر على الصفوة الكريمة من المهاجرين والأنصار الذين سبقوا إلى الإيمان

---

(١) المائدة: الآية ٥١.

والجهاد وكونوا نواة الأمة المسلمة ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ [٧٤] إنها شهادة ربانية رفيعة تظهر فضل السابقين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾(١).

وإن المتأمل للآيات الأولى في سورة الأنفال وللآيات الأخيرة فيها يقف على مدى الانسجام والاتساق بين هذه الآيات، ففي أول السورة قال تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [٧٤].

وفي ختام السورة بعد أن أثنى الله تعالى على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار قال: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾.

ويلاحظ أنه في أول السورة قال في معرض الحث على الاتصاف بصفات المؤمنين ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ وذلك لأنه جاءت الآيات تحث على الاتصاف بصفات المؤمنين، وتشجع على الازدياد من هذه الأعمال الصالحة، وكلما ازداد الإنسان عملاً بها، رفع الله منزلته ودرجته في الجنة.

وأما في خاتمة السورة فلم تذكر الدرجات لأن الآيات جاءت في سياق الثناء على السابقين من المهاجرين والأنصار، فكأنهم رضي الله

---

(١) التوبة: الآية ١٠٠.

عنهم بلغوا الغاية في علو الدرجات، وتسنموا أرفع المنازل، فلا حاجة إلى أن يقول فيهم ﴿ لهم درجات ﴾.

وبعد أن أثنى سبحانه على السابقين الأولين بهذا الثناء الكريم، ألحق بهم في الولاية والنصرة من سار على طريقهم بعدهم، فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تأخرت رتبتهم عنكم، فالإيمان والجهاد والهجرة هي العناصر الأساسية الجوهرية في الولاية والنصرة.

والهجرة المخصوصة التي كلف الله بها المؤمنين قبل الفتح توقفت وانتهى حكمها بفتح مكة، لكن الهجرة من بلاد الكفر والشرك حيث لا يستطيع الإنسان المسلم أن يعبد الله تعالى العبادة الصحيحة إلى بلاد المسلمين، لا زال حكمها قائماً، فعلى المسلم الذي يقيم بين الكفار أن يهاجر إلى بلد مسلم إن كان يستطيع ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله لِمَ؟ قال: «لا تراءى ناراهما»(١) والمعنى: يلزم المسلم ويجب عليه إن استطاع أن يباعد منزله عن منزل المشرك بحيث إذا أوقدت في أحد المنزلين نار لا يراها أهل المنزل الآخر، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴾(٢) ويستثنى من ذلك أيضاً من يذهب إليهم ويقيم بينهم ليبلغهم دعوة الله تعالى وينشر الإسلام بينهم.

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) النساء: الآية ٩٧ ـ ٩٩.

وتزداد الولاية والنصرة بين المسلمين إذا انضم إلى رحم الإيمان رحم القرابة والنسب، فقد اهتم الإسلام بتقوية أواصر الصلة بين الأقارب والأرحام من المسلمين، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ في التوارث إذا كانوا مسلمين ﴿ في كتاب الله ﴾: أي كما هو مبين في آيات المواريث التي أنزلها الله في كتابه الكريم ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ [٧٥].

أسأل الله تعالى أن يعيد للمسلمين إلفتهم وتناصرهم وتعاونهم، وأن يردهم إلى دينهم رداً جميلاً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

مصادر الكتاب

- كتب السنّة المعتمدة.
- من كتب التفسير:

الجامع لأحكام القرآن **للقرطبي** تصحيح أبي إسحاق أطفيش.

مختصر تفسير ابن كثير للصابوني.

روح المعاني **للآلوسي** دار الفكر.

تفسير البيضاوي المطبوع مع مجموعة التفاسير دار إحياء التراث العربي بيروت.

تفسير النسفي المطبوع مع مجموعة التفاسير دار إحياء التراث العربي بيروت.

تفسير الخازن المطبوع مع مجموعة التفاسير دار إحياء التراث العربي بيروت.

التفسير الكبير للفخر الرازي دار الفكر.

نظم الدّرر في تناسب الآي والسور للبقاعي ط ١ دائرة المعارف العثمانية.

تنوير الأذهان من تفسير روح البيان لإسماعيل حقي، اختصار الصابوني دار القلم.

فتح القدير للشوكاني توزيع مكتبة المعارف بالرياض.

في ظلال القرآن لسيد قطب طبعة دار الشروق.

أضواء البيان للشنقيطي الطبعة الموقوفة.

المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) الطبعة القطرية.

الفهـرس

المقدمة ٥
الفصل الأول: الأسباب المباشرة للنصر ... ٧
البداية من النهاية ٩
إصلاح ذات البين ١١
بين الخوف والرجاء ١٣
المؤمنون حقاً ١٦
الإخراج من المدينة ١٧
المجادلة في الحق ١٨
العير أو النفير ٢٠
الدعاء عند اللقاء ٢٢
البشارة بالنصر ٢٣
النوم في الميدان ٢٤
مهمة الملائكة في بدر ٢٦
الثبات عند الضربة الأولى ٢٩
المعركة ٣٢
تأديب المنتصرين ٣٣
الفصل الثاني: الأسباب غير المباشرة للنصر . ٣٥
طاعة الله ورسوله ﷺ ٣٧
الحياة والجهاد ٤٠
التحذير من الفتن ٤٢
مأوى المجاهدين ٤٣
التحذير من الخيانة ٤٤
المؤامرة ٤٦
عناد واستكبار ٤٨
الأمانان ٤٩
التمييز بين الخبيث والطيب ٥١
الإسلام يَجُبّ ما قبله ٥٣
الاستمرار في الجهاد ٥٤
الغنيمة والفيء ٥٥
يوم الفرقان ٥٧
الفصل الثالث: التحذير من أسباب الهزيمة ٦١
التحذير من التكبر والطغيان ٦٤
التحذير من وساوس الشيطان ومكره ... ٦٥
التحذير من المنافقين وإشاعاتهم الكاذبة ٦٦
في غمرات الموت ٦٨
من تاريخ الطغاة والمكذبين ٦٩
التحذير من الغدر ونقض العهد ٧١
الخدعة في الحرب لا في العهد ٧٣
إعداد قوة الرمي والهجوم ٧٥
القوة الاقتصادية ٧٨
الإسلام والسلام ٧٩
الوحدة بعد الفرقة ٨٠
القوة بعد الضعف ٨٢
التحذير من الانشغال بالأسرى ٨٤
فداء ووفاء ٨٧
التحذير من موالاة الكافرين ٨٩
فتنة وفساد ٩١
مصادر الكتاب ٩٥